الفصل الخامس

الخصائص العامة للعصبة الهانزية

- ويشمل :

1 – احتكار تجار الهانزا للتجارة والسلع.

2 – الإزدهار الاقتصادى وتطور النظم والمعاملات المالية.

3 – امتلاك تجار الهانزا لقوات عسكرية برية وبحرية.

4 – الدور الدينى والحضارى لتجار الهانزا وذويهم.

obeikandl.com

obeikandl.com

(الفصل الخامس)

الخصائص العامة للعصبة الهانزية

1 – احتكار تجار الهانزا للتجارة والسلع التجارية:

تمتعت مدن الهانزا الألمانية، على مدى قرابة قرنين من الزمان فى العصور الوسطى، بما يشبه احتكار للتجارة فى أوروبا الشمالية، إذ تمتعت تلك المدن بمزاولة التجارة على طول المحور الشمالى العظيم من لندن عبر بحر الشمال مرورًا بإسكندنافيا، وصولا إلى البلطيق، ثم إلى نوفجورود، كما أنها تمتعت بامتيازات منقطعة النظير ولم تواجهها منافسة فى تجارتها هناك إلا قليلاً[1]. وظهرت أهمية الامتيازات التى حصلت عليها الهانزا من الملوك والأمراء فى تمكنها من تحقيق تلك السيطرة الاحتكارية للتجارة، خاصة بعد نجاحها فى إقامة مراكز تجارية خارجية للاتحاد والتى تمثلت فى بروج، ولندن، وبيرجن، وويزبى، ونوفجورود، وبذا أصبح للعصبة الهانزية بذلك احتكارًا واسعًا، إذ تمكنت من السيطرة على التجارة لصالح أعضائها خاصة تجارة أوروبا الشمالية كاملة[2]، فكانوا من جهة يحتكرون التجارة الروسية، ومن جهة أخرى كانوا يسيطرون ويتحكمون فى مضيق البلطيق، خاصة مع امتلاكهم الوسائل الرئيسية اللازمة للقوة البحرية من وفرة الأخشاب اللازمة لبناء السفن والصوارى والألواح وغيرها، كما كانوا على اتصال بالطريق العظيم الذى تمكنوا من خلاله من إحضار الفراء، والصوف، والذرة والشمع والخيول إلى المحطة الخاصة بهم من روسيا وسيبريا Siberia[3]

إلى جانب الجلود، والشحم، والعسل، والقنب[4]، وبذر الكتان، من روسيا كذلك[5] والحرير[6]

(1) Quesenbery, The Institutional success of the German Hansa, P.4.
– كانت المدن تستطيع إدعاء احتكار التجارة فى بعض السلع داخل منطقة ذات أبعاد محددة، عن ذلك انظر:
- Dijkman (J.), Shaping medieval markets, the organization of commodity markets in Holland, C. 1200 - C. 1450, Vol.8, Drill, Leiden, Boston, 2011, P.159.
(2) Myers, Mediaeval and Modern History, P.156.
(3) Colvin, The Germans in England, P.34.
(4) القنب: نبات بري ينمو تلقائياً أو يزرع ويتراوح طول شجيرته بين متر واحد ومترين ونصف تبعاً لجودة الأرض وهطول الأمطار، وأوراقه طويلة وخفيفة ومشرشرة تتجمع على شكل مروحة.
(5) Hartmeyer, Der Weinhandel im Gebiete der Hanse, P.2.
(6) قد امتلأت حوانيت ومتاجر غرب أوروبا بواردات الشرق من الحرير المتنوع الألوان والرسوم، يمثل الطير =

والتوابل[1] من تركستان Turkestan، والصين China.

وعلى الجانب الغربى كانوا يحتكرون صيد الرنجة المتمركزة آنذاك فى بحر البلطيق لأنها تنتج كميات هائلة من سمك القديد المملح، الذى تطلبه أوروبا الكاثولوكية[2]، وقد كان الأساس الذى تقوم عليه التجارة الهانزية الإسكندفانية هو تجارة الرنجة تحت الإشراف الخاص للوبيك الهانزية، كما أنها سيطرت على التجارة الهانزية فى النرويج، خاصة والجبال التى كانت بمثابة مستودعات مركزية[3]، خاصة بعد أن أصبحت بيرجن النرويجية ضمن العصبة الهانزية، وصارت مركزًا تجاريًا فى مجال تجار الشمال[4]. فاحتكرت العصبة تجارة الأسماك النرويجية، واستغلت الموارد المعدنية والزراعية للسويد Sweden، جلبت الأخشاب والحبوب، والقار، والزبد، والجبن، ولحم الخنزير المملح، إلى الفلاندرز وانجلترا، بل وتاجرت فى كل شىء، فقد كانت تجارتها محدودة النطاق الجغرافى إلا أنها كانت واسعة التعامل فى السلع التجارية، كذلك لم يحدث أن استخدمت القوة المسلحة لتحقيق

= والحيوان مع أنماط زخرفية أخرى (كرسوم غزلان وسباع وزرافات ووحوش وأشخاص)، معظمها كان يرد من الهند والصين، عن ذلك انظر: نعيم زكى، طرق التجارة، ص 246.

– كما كان يتم استيراد الأقمشة الحريرية من صنع الحرفيين الشوام المهرة، إلى جانب الحرير الخام من بلدان آسيا الداخلية عن ذلك انظر: ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ترجمة/ إلياس شاهين، دار التقدم، موسكو، الاتحاد السوفيتى، 1986م، ص 149.

(1) اضطر تجار أوروبا إلى التعامل مع التجار المسلمين من أجل الحصول على هذه السلع لأن تجارة الشرق الأقصى خاصة التوابل كانت تحت يد تجار الكارم "وهم فئة من التجار كان بيدهم تجارة البهار الواردة إلى مصر من الهند عن طريق ثغر اليمن، وكان معظمهم في الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية التى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربى فنسبوا إلى أصلهم الجغرافى بعد تحريفه إلى "الكارم"، ثم أطلق ذلك اللفظ على جميع من مارس تلك التجارة بمصر، الذين احتكروا تجارة الهند والشرق الأقصى، وكان مركز نشاطهم الأول فى المحيط الهندى كما ورد فى وثائق الجنيزة. عن ذلك انظر: المقريزى، كتاب السلوك لمعرفة أخبار الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج1، القاهرة، 1939م، ص 899، حاشية (3) ؛عطية القوصي، **أضواء جديدة على تجارة الكارم**، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المصرية، المجلد 22، 1975م، ص17. وعنهم أيضا انظر:

- Astor, Studies on the Levantine trade; The Karimi Merchants, JRSA, London, 1956, PP.45-56.

(2) Colvin, the Germans in England, P.34.

(3) Hartmeyer, Der Weinhandel im Gebiete der Hanse, P.2.

(4) Keppen, The World in the middle ages, Vol. II, P.545.

نوع من التفوق، بل إنها بدلا من ذلك فرضت حظرًا على بعض السلع التجارية، إلى جانب المقاطعة والاستفادة من الضغوط الاقتصادية، وعن طريقها استطاعت أن تجعل من المدن المتمردة وحتى الملوك خاضعين لها، كما أنها ساندت ملك الدانمارك Denmark فالديمار Waldemar (1340 – 1375م) فى حروبه التى خاضها فى منتصف القرن الرابع عشر، واستطاعت أن تستولى على كوبنهاجن Copenhagen[1]، وبذلك تم لها احتكار تجارة أسماك بحر البلطيق، وكانت مدن العصبة الهانزية، تعشق الاحتكار وخصوصا احتكار الأقمشة الفلمنكية لنقلها إلى روسيا ومبادلتها بالفراء، وهذه التجارة حققت تدفقًا مستمرًا للسلع الروسية على أيدى التجار الألمان الذين استقروا فى روسيا وتوغلوا فى أقاصيها[2]. فقد عملت هامبورج Hamburg، وبريمن Bremen، على نقل السمك والفراء والعسل والزفت (القار) والخشب ونبات الجاودار[3]، ومنتجات اخرى من المناطق السلافية والتى كانت تحتاج إليها أوروبا الغربية، كما عملت كنقاط لجمع المنتج الزراعى من منطقة الإلب والتى كان يتم شحنها إلى الأماكن المختلفة فى كافة أنحاء شمال أوروبا، فقد حملوا من الغرب الملح والسلع المصنعة التى كان يتم تبادلها مع السلع الشرقية، إذ كان الملح مهما جدًا لحفظ الأسماك[4]، خاصة ملح بورجنيف Bourgneuf[5]، مفازة الملح "Bay salt"، الذى حملوه فى خليج بسكاى، حيث حملوا من هناك أيضًا حمولات من النبيذ

(1) كوبنهاجن Copenhagen: عاصمة الدانمارك، وتقع على جزر زيلاند Zealand وAmager، في الطرف الجنوبي من مضيق أوريسوند Oresund وفي الجهة المقابلة مالموه Malmo. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. III, P.132.

(2) بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 219؛ نورالدين حاطوم، تاريخ العصر الوسيط، جـ/2، ص 25.

(3) الجاودار: يجود زراعته فى التربات الفقيرة والمناخ البارد، لذا فيزرع فى فرنسا على سبيل المثال، فى الأودية المرتفعة من الهضبة الوسطى والفوج والإلب. عن ذلك انظر:
– جودة حسنين جودة، قارة أوروبا، ص 127.

(4) Adelson, Medieval Commerce, P.87.

(5) بورجنيف Bourgneuf: هي بلدة وميناء بحري في فرنسا، يبعد 23ميلاً جنوب غرب Nantes. عن ذلك انظر:
- Ramsay (J.), A dictionary geographical statistical and historical of the Various Countries, Vol. I, New York, 1847, P. 425.

الفرنسى[1]، إذ بسبب مصادفة جغرافية طيبة كانت مناجم ملح بورجنيف ملاصقة تماما للأروشيل[2]، حتى أن تجار السفن كانوا يستطيعون أن يحملوا النبيذ والملح فى وقت واحد، وأثناء القرن الرابع عشر، صدرت سفن الهانزا كميات كبيرة من ملح المفازات إلى ساحل سكانيا، حيث تقدمت هناك عملية صيد أسماك الرنجة[3]، خاصة أن الهانزا كانت لها اليد العليا فى مصايد الأسماك الشمالية، ويعد إنشاء محطة بيرجن مثالا على هذا التحكم والسيطرة[4].

وعلى الرغم من استياء النرويجيين الشديد، إلا أن المعاهدة التى أبرمت فى عام 694 هـ/ 1294م، منحت الهانزا امتيازات تجارية كبيرة ومنحتها أيضًا حق تجارة سمك الرنجة فى بحر الشمال على مدى عقود وقد سيطرت الهانزا على مصايد أسماك الرنجة فى سكانيا وارتبطت هذه السيطرة بسيطرتها على الملح، إذ أن مناجم لونبيرج Luneberg[5]، الواقعة فى جنوب لوبيك، كانت تنتج

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 144.

– احتل النبيذ بلا شك المكان الأول بين السلع، ونظرًا لأهميته تلك فى أوروبا فقد كان يتم نقله وشحنه من اقليم إلى آخر حيث كانت التجارة الفرنسية تهتم بشكل كبير بالنبيذ، لأنها كانت غنية به خاصة بسبب غزارة إنتاج مزارع العنب الكبيرة فى المناطق التى تنتج للتصدير، فكان يتم شحن منتجات مزارع العنب الفرنسية إلى نورماندیا وانجلترا والفلاندرز وألمانيا ومناطق أخرى.

– عن ذلك انظر: بيرين، تاريخ أوروبا، ص 148.

- Adelson, Medieval Commerce, PP.65, 67.
- Gauvard, le France au moyen Age, PP.258 – 259.

(2)عرف النبيذ الذى خرج من ميناء لأروشيل الفرنسى باسم نبيذ لاروشيل، وهو الاسم الذى عرف به فى التجارة، وقد حملته سفن الهانزا إلى بحر الشمال وإلى أقاصى بحر البلطيق، ولقد نفذ إلى داخل أوروبا بواسطة النهر، وفى ليبج Liege، عند بداية القرن الرابع عشر، وصلت كميات كبيرة من هناك وبيعت بأسعار أرخص من أسعار نبيذ ألمانيا، رغم بعد المسافة، عن ذلك انظر:

بيرين، تاريخ أوروبا، ص 148.

(3) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 149.

(4) Quesenbery, The Institutional success of the German Hanse, P.46.

– عن السيطرة التجارية للألمان فى المدن النرويجية. انظر:

- Sartorius, Urkundliche Geichichte, Vol.1, PP.192 – 210.

(5) لونبيرج Luneberg: تقع شمال شرق ألمانيا الغربية على نهر Iimenau في الطرف الشمالي الشرقي من Lüneburger Heide. عن ذلك انظر:

- The New Encyclopedia, Vol. VI, P.390.

كمية كبيرة منه والذى يستخدم فى حفظ السمك ومنحت الهانزا ميزة امتلاك هذا المنتج الضرورى، وقد صدر مرسوم ملكى يقضى بمنع الصيادين السويديين من تمليح ما يصيدونه، وعليه فإن ذلك أسفر عن تحكم الهانزا فى نصف إنتاج الرنجة فى أواخر القرن الرابع عشر[1]، وقد كان يتم نقل مثل هذه السلع ذات الحمل الثقيل كالملح والرنجة عبر البحار لصعوبة نقلها وارتفاع التكلفة[2]. وقد ازداد الاتصال التجارى بين ألمانيا واسكندیناوه وشرق أوروبا ومن أهم المتاجر الفراء، والتوابل، الواردة من الشرق الأقصى[3]، فقد جلبوا المنتجات الشرقية ومنتجات البحر المتوسط ومنتجات من الهند، مثل الفلفل والكمون، والكبريت، واللوز، والتين، الأرز، واليانسون، وغيرها كالخيول والثيران والأبقار[4]. خاصة أن أوروبا اعتادت طوال العصور الوسطى أن تستورد التوابل والبخور والأقمشة والمصنوعات المعدنية والخزفية والزجاجية.

(1) Quesenbery, The Institutional success of the German Hanse, P.46
(2) Kiesselbach, Die Wirtscha Ftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, P.115
(3) السيد الباز العرينى، الحضارة والنظم الأوروبية، ص 114.
(4) Kiesselbach, Die Wirtscha Ftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, P.119.

- قامت فكرة التجارة الخارجية على أساس مبدأ التخصص فى الإنتاج فلكل إقليم ولكل بلد خصائصه الطبيعية من حرارة أو برودة، ومطر أو جفاف، مما يشكل نوع الثروة النباتية والحيوانية الموجودة فى ذلك الإقليم، ولكل إقليم ولكل بلد تربته الخاصة التى قد تتوافر فيها أنواع معينة من المعادن والأحجار والثياب، ولا يمكن لبلد مهما تعددت موارده وتنوعت ثرواته وتقدمت وسائل الإنتاج فيه أن يكفى نفسه بنفسه، وإنما قضت طبيعة التخصص فى الإنتاج أن يجد البلد لديه فائضًا من غلة معينة، وفى الوقت نفسه يكون محتاجًا إلى غلة أخرى، الأمر الذى يجعل من بلاد العالم جميعًا وحدة اقتصادية متكاملة يتمم بعضها بعضًا عن طريق التجارة الخارجية، فيصدر كل بلد مايفيض عن حاجته من إنتاج ويستورد بدله ما يحتاج إليه مما تغله البلدان الأخرى. عن ذلك انظر:
- سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، جامعة بيروت، لبنان، 1977م، ص131.
- قد كان الشرق زمن الحروب الصليبية مركزًا لتصدير سلع الشرق حيث قام الصليبيون المقيمون بالشام بتصدير سلع الشرق، وكذلك تصدير بعض حاصلات الشرق الأقصى كالتمر الهندى، والأفاوية، والطيب، والبخور، والبهارات وخصوصًا القرفة (دارصينى) والذرة الشامية. عن ذلك انظر:
أحمد الشامى، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، 1045هـ / 1985م، ص 202.

على أنه مهما تنوعت البضائع التى اعتاد الغرب الأوروبي على استيرادها من الشرق فى العصور الوسطى، فإن هناك غلتين كان لا يمكن للغرب أن يستغنى عنهما لعدم توافرهما فى الغرب من ناحية ولأن طبيعة الحياة فى غرب أوروبا فى تلك العصور جعلتها غلتين أساسيتين لا غنى عنهما فى الحياة من ناحية أخرى، وهما البخور والتوابل، إذ أن البخور كان لابد منه فى الكنائس والأديرة، وكذلك التوابل كانت لا تقل أهمية فى حياة الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى[1]، وقد كان الألمان ممن قدموا إلى الشام زمن الحروب الصليبية، خاصة إلى عكا التى مثلت أهم موانىء التجارة العالمية والداخلية فى بلاد الشام طوال تلك الفترة[2]، لذا فإن جميع الرحالة والجغرافيون العرب الذين سافروا إلى تلك البلاد فى ذلك العصر قد أوردوا وصفًا لها ولتجارتها فى كتاباتهم[3]، من هؤلاء الإدريسي الذى يعد من أشهر جغرافى المسلمين فى العصور الوسطى، الذى وصفها بأنها مدينة كبيرة ذات أرجاء متسعة، وضياعها كثيرة، ولها ميناء مأمون من ناحية رسو السفن فيه[4]، ونظرًا لإدراكه لطبيعة تلك المدينة الساحلية التجارية وهى من المدن الصليبية الرئيسية على الساحل لذا فقد وجد بها جنسيات متعددة تعبيرًا عن طبيعة الوجود الصليبى ذاته ببلاد الشام، حيث تكون من جنسيات مختلفة شملت الإيطاليين، والفرنج، والإنجليز، والألمان، والدانمركيين، والروس، وغيرهم كثيرون[5]. إذا

(1) سعيد عاشور، بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى، ص ص 131 – 132.

(2) قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية (الأيديولوجية – الدوافع – النتائج)،ص214.

(3) من هؤلاء الرحالة ابن جبير حيث ذكر عنها أنها "قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجوارى المنشآت فى البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة فى عظمتها بالقسطنطينية مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأفاق". عن ذلك انظر:
– ابن جبير، الرحلة، طبع بمدينة ليدن، بمطبعة بريل، 1907م، ص 303.
– كما وصفها الرحالة الصليبيون ومن هؤلاء الرحالة فتيلوس Fetellus (512 – 525 هـ/ 1118 – 1130م)، حيث ذكر أن مينائها يصل إليه أكبر عدد من السفن مما يأتى إلى أى ميناء، وإليها تتدفق بضائع وحاجيات آسيا وأوروبا وإفريقيا، عن ذلك انظر: سهيل زكار، الموسوعة الشامية فى تاريخ الحروب الصليبية، الحملة الصليبية الثالثة، جـ31، دمشق، سوريا 1418هـ / 1998م، ص 214.
– عن الرحالة فتيلوس Fetellus انظر محمد مؤنس عوض، الرحالة الأوربيون فى العصور الوسطى، (نماذج مختارة)، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 2004م، ص 25.

(4) الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، د. ت، ق 3، ج5، ص 365.

(5) محمد مؤنس عوض، الجغرافيون والرحالة المسلمون فى بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، ط1، عين =

فإن الألمان مثلهم مثل باقى الأوروبيين شاركوا فى تلك التجارة وعرفوا منتجات الشرق لذا فإن الغرب سعى للحصول على تلك المنتجات لبيعها فى أسواق الغرب حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية.

إلى جانب كل أنواع المتاجر السابقة التى توافرت فى أوروبا فقد أمدهم الشرقيين (الأدنى والأقصى) بكم هائل من المتاجر والسلع منها جوزة الطيب[1]، والمسك من التيبت[2]، والصمغ الشجرى، والعنبر[3]، من الجزيرة العربية واللؤلؤ والأحجار الكريمة[4]، والعاج[5]، من بلدان إفريقيا،

= للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1995، ص ص 23 – 24.

- عن الحياة الاقتصادية فى عكا زمن الحروب الصليبية. انظر:
- لطيفة البوعنين، **الحياة الاقتصادية فى عكا زمن الحروب الصليبية**، رسالة دكتوراه، غير منشورة، كلية الآداب بالدمام، 1418هـ.
- قد لعبت الحروب الصليبية دورًا كبيرًا فى ظهور الأسواق العالمية، لأن الإقبال كان شديدًا فى أسواق أوروبا الغربية على شراء منتجات الشرق، وأن التبادل التجارى الذى كان بدايته فى منتصف القرن الثانى عشر قد بلغ ذروته فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى.
- عن ذلك انظر: حياة ناصر الحجى، **الأهمية التاريخية لميناء عيذاب من منتصف القرن السادس الهجرى، الثانى عشر الميلادى إلى منتصف القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى**، ندوة البحر الأحمر عبر عصور التاريخ، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1424هـ، 2003م، ص ص85 – 86.

(1) جوزة الطيب: ثمرة شجرة تنبت فى الهند وجزائر الهند الشرقية – فإذا أحمر لونها تجمع وتجفف فى الشمس فيصير لونها برتقاليا، وقد استعملها العرب فى الطب والتوابل، وأشهر أسواقها الاسكندرية وسمرقند. عن ذلك انظر: الشيزرى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، تحقيق/ السيد الباز العرينى، القاهرة، 1946، ص 50، حاشية 5.

(2) المسك: مادة تؤخذ من حيوان خاص يوجد بالتبت والصين والهند الصينية وجزائر سيلان وجاوة واليابان، ومسك التبت أطيب أنواع المسك رائحة وهو إلى جانب فائدته العطرية كان يستخدم فى معالجة المصابين بالخفقان وضعف القلب. عن ذلك انظر:
– الدمشقى، الإشارة إلى محاسن التجارة، تحقيق/ البشرى الشوربجى، القاهرة، 1977م، ص ص 36 – 37 حاشية رقم 27.

(3) العنبر: مادة صلبة تشبه الشمع لها رائحة ذكية عطرة نفاذة إذا ما احترقت وتحتل مكان الصدارة بين أنواع العطور الممتازة، انظر: نعيم زكى، طرق التجارة، ص 229.

(4) كالياقوت والزمرد والفيروزج وغيرها. عنها انظر: الدمشقى، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ص 32 – 36.

(5) العاج: كان من السلع المهمة المصدرة إلى الغرب ويأتى من إفريقيا،و من الهند، وكان يصنع منه الأثاث، =

وكثير غيره كان يتم تصريفه فى الأسواق الأوروبية الغربية[1].

بالإضافة إلى القرفة (الدارصينى) [2]، والزنجبيل[3]، والسهيل[4]، كما أحضروا العقاقير مثل الكافور[5]، ونبات الكاسيا[6]، والروند[7]، البلسم[8]، والعطور[9]، كما أحضروا البروكار[10]،

= وتحف المعابد والتماثيل، ويقال أنه يطحن ويدخل فى بعض العلاجات الطبية. عن ذلك انظر: نعيم زكى، طرق التجارة، ص ص 241 – 242.

(1) ميخائيل زابوروف، الصليبيون فى الشرق، ص 149.

(2) الدار صينى: يطلق على لحاء شجرة القرفة وقد عرفها العرب منذ العصور الأولى وكانت تستخدم مطحونة فى حفظ الأطعمة والنبيذ، وقد دخلت فى صناعة العقاقير الطبية، ولم تعرف فى أوروبا إلا منذ القرن الثامن الميلادى. انظر: نعيم زكى، طرق التجارة، ص ص 201 – 202.

(3) الزنجبيل: من أهم توابل العصور الوسطى، يدخل فى صناعة العقاقير الطبية والطهى وحفظ وتحضير الخمور ويزرع بكميات كبيرة فى الهند والصين وسمرقند وبعض البلاد العربية. عن ذلك انظر: نعيم زكى، طرق التجارة، ص 205.

(4) السهيل: أو الحبهان من السلع التى استخدمت فى الطب والطعام، وعرفت كدواء حيث استخدم فى أوروبا العصور الوسطى بكثرة، وقد عرفوا فوائده عن العرب والفرس كما أضيف إلى الطعام كتابل يحفظها خاصة فى الغرب المسيحى لطول الصوم عندهم، ويرد من الهند الصينية وكانافور وقالقوط وأجوارهما. عن ذلك انظر: نعيم زكى، طرق التجارة، ص 218.

(5) الكافور: يرد من الهند وجزر الهند الشرقية، ويحصلون عليه من قلب الشجرة نفسها بعد إحداث شق فيها فيسيل السائل فى أوانى. انظر: عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص 170، حاشية رقم 202.

(6) نبات الكاسيا: المعروف بـ خيار شنبر وهو نوع من الخروب كبير الحجم، ويحمل قرونًا خضراء طويلة لها حب حلو المذاق، تستعمل كدواء مسهل، وكان يصدر فى العصور الوسطى إلى أوروبا من الإسكندرية. عن ذلك انظر: الشيزرى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص 46، حاشية رقم 3.

(7) الروند: ويعرف بالروند الصينى وهو ساق نبات إذا استخرج من الأرض وهو رطب يتشقق وهذه تثقب وتنظم فى خيوط وتعلق فى الهواء حتى تجف، يعالج أمراض الكبد والكلى. عن ذلك انظر: ابن البيطار، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، ج2، القاهرة، 1291هـ، ص ص 129 – 131.

(8) البلسم: والبلسان شجرة كانت تنبت بعين شمس بالقرب من القاهرة، وتشرط الشجرة فى وقت معين من السنة ويجمع ما يرشح منها فلا يتجاوز بضعة أرطال من الدهن الطيب الرائحة، استعمل فى أوروبا فى الطقوس الدينية المسيحية. انظر: عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص 169، حاشية 198.

(9) Thompson, Johnson, Medieval Europe, P.565.

(10) البروكار: نوع من أنواع الحرير الشرقى كثر الطلب عليه فى أوروبا، وكان يجلب من الإسكندرية وطرابلس ودمشق وأنطاكية وقبرص وأسيا الصغرى والصين وإيران. عن ذلك انظر: نعيم زكى، طرق التجارة، ص 246.

والأوانى الزجاجية[1]. وسنبل الطيب والخلجان[2]، والكبابة الصينى والقرنفل[3]، وجميع الأنواع الأخرى الثمينة من التوابل والعقاقير[4].

إلى جانب السلع السابقة فقد تمثلت الواردات الألمانية الهانزية فى الذرة، والبيرة، والكتان والأدوات، كما تم تصدير الأسماك وزيت السمك والشحم والكبريت والأخشاب المحلية وقماش الملابس الصوفية، وقد قامت العصبة الهانزية تحت إشراف لوبيك بتجميع هذه السلع القادمة من الشرق والشمال وإحضارها إلى أسواق الفلاندرز بجانب العناية بمنتجات التجارة الفلمنكية، كما حدث ازدهار للأسواق الفلمنكية بسبب تدفق المنتجات الإنجليزية والفرنسية إليها، كما أن الهانزا ولأول مرة فى هذه الفترة سيطرت تماما على السوق بسبب العقود والاحتكارات الإنجليزية، وكذلك فعلوا فى الصادرات البريطانية، والتى كانت عادة ما تتألف من الصوف والجلود والمعادن والتى احتكروا تجارتها[5]، وليس أدل على سيطرة الهانزا الاحتكارية من قيامها بالحظر التجارى ضد الفلاندرز وتعليق تجارتها معها؛ بل و نقل محطة بروج إلى مكان آخر عندما وجدت فائدة كبيرة لها فى ذلك، إذ قامت الهانزا بتعليق التجارة مع الفلمنك لأكثر من مرة، وكانوا لا يعيدون المحطة إلى بروج، إلا بعد تأمين الامتيازات التى يبغونها[6]،خاصة أن هدف الهانزا وشغلها الشاغل تحقيق الربح.

---

(1) بالار. م، الحملات الصليبية والشرق اللاتينى من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، ترجمة/ بشير السباعى، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة، 2003م، ص 310.

(2) الخلجان: من المواد كثيرة الاستعمال فى الطب، وشجرته تعرف باسم "خسرودار" وهو يرد من الهند وتستعمله أوروبا فى الطب والطهى، عن ذلك انظر: ابن البيطار، مفردات الأدوية، ج1، ص ص 79-80.

(3) القرنفل: براعم بها ثمار تحملها أغصان شجرة معروفة بهذا الاسم وكانت تستعمل أغصان الشجرة وأوراقها فى الطب والأطعمة والأشربة وموطن القرنفل جزائر الملوك بالهند الشرقية، وأشهر أسواقه فى العصور الوسطى القسطنطينية والإسكندرية. عن ذلك انظر: الدمشقى، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص 39، حاشية (30) وانظر كذلك: الشيزرى، نهاية الرتبة فى طلب الحسبة، ص 49، حاشية (12).

(4) ماركو بولو، رحلاته، ج3، ط2، القاهرة، 1996م، ص 25.

(5) Hartmeyer, Der wenhandel im Gebiete der Hanse, PP.2 – 3.

(6) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.51.

- عن ممارسة الهانزا للحظر التجارى وعقوبة الحرمان ضد الفلاندرز Flanders وبريمن Bremen وبرونسويك Brunswick انظر: =

وضحت أهداف الهانزا فى شعارهم "الذهب أبو السعادة وابن العناية والرعاية حزين وبائس من فاته وقلق وحائر من ملكه"، معنى ذلك أنه نقمة فى وجوده وعدم وجوده.

إذ كانت أبرز أهداف المؤسسة الهانزية توجهها المطلق لتحقيق الأرباح التجارية وهذا التركيز أدى إلى التشجيع المستمر على القيام بأنشطة لاحتكار التجارة. ففي الوقت الذي قام فيه أتباع الهانزا باستخدام طرق سياسية للمفاوضات الدبلوماسية وعقد تحالفات إستراتيجية والقيام بعمليات عسكرية، كان هدفهم الأساسى من وراء ذلك تحقيق الأرباح التجارية[1].

ومن أجل تحقيق ما سبق من ربح وسيطرة احتكارية فقد سعوا إلى الحصول على امتيازات تجارية كبيرة من الملوك[2]، وواتتهم الفرصة لتحقيق ذلك، لأن حكام العصور الوسطى كانوا حريصين على تشجيع التجارة الخارجية من أجل تعويض الثروات المستنزفة، ومن أجل توفير الغذاء لرعاياهم واسترضاء النبلاء، ومن ثم فقد تم منح تجار الهانزا حقوقًا تجارية دون غيرهم باعتبار أن لديهم القدرة على تقديم سلع وموارد حيوية مهمة بكميات كبيرة، وقد حافظ هؤلاء التجار على هذه الحقوق بالعنف وقاموا بأعمال عدوانية وأعمال تجارية لصوصية، هذا من جانب ومن جانب آخر عن طريق التحكم الاستراتيجي فى بعض الموارد وإنشاء المحطات[3].

= -Zimmern, The Hansa Towns, PP.84 -87.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German, P.39.

(2) تعددت مثل هذه الامتيازات منها امتيازات الملك هنرى الثانى ملك انجلترا لرجال كولونيا فى لندن والخاص بالحماية فى عام 1157م، عن ذلك انظر:

- Lappenberg, Urkundlich Geschichte, part II, A.D. 1175, PP.3-4.

- امتياز الملك ريتشارد Richard ملك انجلترا لرعايا كولونيا أيضا فى انجلترا عام 1194م. انظر:

- Lappenberg, Urkundlich Geschichte, Part II, A.D. 1194, P.5.

- امتياز الإمبراطور فردريك الأول للوبيك فى عام 1188م. عن ذلك انظر:

- Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II A.D. 1188, P.5.

- امتياز الإمبراطور فردريك الثاني للوبيك من أجل التحرر من بعض الضرائب عام 1226م. عن ذلك انظر:

- Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II A.D. 1226, P.27.

- امتياز الملك Waldemer بشأن منح سوق لوبيك Lübeck عام 1203م. عن ذلك انظر:

- Sartorius, , Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1203, P.12.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.45.

- كانت الاحتكارات للتجارة الاقليمية كالمواد الغذائية الرئيسية والمواد الخام اللازمة للصناعة أمرًا شائعًا من =

يتضح التحكم التجارى للهانزا بصورة واضحة من خلال التركيز على السلع الضرورية ويقدم بوستان Postan، ملخصًا ممتازًا للعديد من السلع التى تم الاتجار فيها فى العصور الوسطى فى أوروبا الشمالية والتى يمكن من خلالها الاستدلال على هيمنة الهانزا، وعلى العكس من تجارة حوض البحر المتوسط الأكثر اهتمامًا بالجنوب، فإن التجارة الشمالية كانت تتركز فى الاحتياجات الأساسية، لذا فإن الطلب على السلع لم يكن مرنًا ومن ثم أوجد فرصًا كبيرة للمنتجين فى التحكم فى السوق.

فالحبوب على سبيل المثال، كان الطلب عليها كبيرًا وذلك لزيادة عدد سكان أراضى السهول والاسكندنافيين الذين يعانون من نقص فى الغذاء، وفى القرن الثالث عشر الميلادى، قام المهاجرون الألمان بتطوير حقول الحبوب فى الأراضى السلافية الشرقية والأراضى البولندية، إذ أن تجار الهانزا التابعين للنظام التيوتونى وجدوا الفرصة مواتية لهم للتحكم فى تجارة هذه السلعة الحيوية (الحبوب) وقد ضمن الحكم الصارم للنظام من فرض سيطرة احتكارية على صادرات الحبوب فى الوقت الذى كان يعانى فيه الغرب من عجز فى الإنتاج الزراعى الذى كان الطلب عليه شديدًا[1].

ونظرًا لأن الحبوب كانت من المواد والسلع الأساسية، والتى لا غنى عنها، لذا فإن مدن الهانزا وعلى رأسها هامبورج، قد سعت للحصول على امتيازات من أجل الإعفاء من الرسوم والجمارك من هنرى الأسد Hanry the Lion، عند نقل هذه السلع (الحبوب) على أنه لم يتم الحصول على موافقة صريحة لإلغائها، وإنما تم خفض المبلغ المعتاد للحبوب إلى معدل النصف والذى كان يدفع من قبل، وذلك فى عام 673هـ/ 1274م، و675هـ/ 1276م، وكان هذا يعد امتيازًا جديدًا[2]، وهكذا تحكموا فى إمدادات الحبوب، كما تحكموا أيضًا فى السلع الغذائية الأخرى ذات الأهمية الحيوية، وبالفعل كانوا قادرين على جعل الاسكندنافيين رهينة لإمداد الحبوب[3].

الهانزاكما تم فى الفلاندرز Flandars وهولندا Holland وانجلترا England. عن ذلك انظر:
- Dijkman, Shaping, Medieval Markets, P.159.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hanse, PP.45-46.
(2) Kiesselbach, Die Wirtscha Ftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, P.113.
(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.46.

– عن صراع الهانزا مع الدول الاسكندينافية من أجل توسيع نفوذهم وسيطرتهم التجارية انظر:
- Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. I, PP.55-56.

أسهمت سلع غير غذائية فى مزيد من الجذب الهانزي، لتواجدها الكبير في الفلاندرز، وخاصة فى محطة بروج، إلى جانب تجار الصوف بكولونيا، كل ذلك أدى إلى سيطرة الهانزا على صادرات الثياب إلى السكان المتزايدين فى البلطيق وفى المناطق الشرقية، وقد أدى الطلب على الأخشاب التي تستخرج من الغابات الإنجليزية إلى زيادة المنتجات القادمة من الشرق الأوربي، والذي كان يتحكم فيه هيئة التيوتون، مما أدى إلى التدافع على منتجات الهانزا في عيون الأوروبيين المستهلكين. وقد تحاشت السفن الهانزية تحرك العربات التى لا تحمل عددًا من السلع المتباينة مثل الجلود والشمع والعسل والكهرمان من روسيا والشرق، والجعة والفولاذ من المناطق الألمانية، والنحاس من المناجم التى تديرها الهانزا فى السويد والتى أدت بشكل مباشر إلى إغراء كبير وأدت إلى زيادة فرص التحكم والاحتكار[1].

على أن الميزة التجارية للهانزا لم تستمد فقط من الإقبال الكبير على هذه المنتجات، ولكن أيضًا من قدرة الهانزا الطاغية على تقديم مثل هذه السلع الأساسية لمن ليست لديهم القدرة على ذلك[2].

اتسمت التجارة فى المحطات الخاصة بالهانزا بالحرية الكاملة، وقد وضح ذلك فى لوبيك على وجه الخصوص، بمقتضى المرسوم الصادر فى لوبيك 768هـ/ 1366م والذى حذر أى تاجر غير منتمى للعصبة الهانزية أو مدنها من الوصول إلى محطة نوفجورود، وذلك طبقا للتعليمات الواردة فى قانون الهانزا، ويذكر Kiesselbach رأياً آخر أنه ربما يكون مقبولا فى الاتحاد، ولكنه لم يكن له حق العمل بالتجارة الروسية لأنه لا يتمتع بالعضوية الكاملة[3]، وفى هذا العام تم إصدار عدد من

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hanse, PP.46-47.
- See Also: Stphenson, Medieval History, P.242.=
– = تقدمت الصناعة المعدنية فى ألمانيا في هيلد يشيم Hildesheim ونورمبرج، وفى وادى الميز، وفى هاى Huy وقبل ذلك فى دينانت Dinant إلى حد المساهمة فى التجارة العالمية.
– ولقد تمتعت مصنوعات دينانت النحاسية والمعروفة بديناً تدريس Dinanderies بشهرة أوروبية. عن ذلك انظر:
– بيرين، تاريخ أوروبا، ص 151.
(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.47.
(3) Colvin, The Germans in England, P.34.
- See Also: Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse,Vol. I, PP.3637=

الأحكام الدستورية الأساسية لإعطاء قوة ملزمة لجميع المدن الهانزية منها، أنه لا يجوز لأحد الحصول على نصيب فى الامتيازات الهانزية دون أن يكون مواطنًا من مواطنى هذه المدن كما لا يجوز كذلك لأحد التمتع بهذه الامتيازات من الرجال البالغين فى بروج البلجيكية وبيرجن ونوفجورود دون أن يكون مواطنًا من مواطنى المدن التابعة للاتحاد[1].

إلى جانب إقرارها بأن ما يتم فى مدينة هامبورج ينطبق على جميع المدن ولا يجوز لأى شخص يعيش على الشاطىء القيام بأعمال النهب والسرقة، إضافة إلى أن للمدن الحق فى اتخاذ القرارات، التى تتوافق مع ظروفها الداخلية الاجتماعية والسياسية ومع ما يتوافق مع الظروف الإقليمية[2].

وليس من شك فى أن مثل هذه القرارات التى اتخذتها العصبة كانت تهدف من ورائها إلى احكام سيطرتها التجارية الاحتكارية فى هذه المناطق وداخل محطاتها ومراكزها، كما يتضح من النظام السياسى للهانزا الطريقة التى سارت بها المدن الهانزية من أجل جعل تجارها هم المتحكمين وأصحاب السيادة فى تسيير التجارة[3].

فقد تمكنوا من خلال محطاتهم الأربع من شراء الجلود الروسية، والأخشاب من نوفجورود، والسمك من بيرجن، والثياب من بروج، والصوف بداية من لندن، وقد تسنى لهم ذلك بسبب الامتيازات التجارية التى حصلوا عليها والتى فاقت الامتيازات الممنوحة لغيرهم من التجار وهذه الامتيازات خولتهم الحق فى الحفاظ على الأسعار عن طريق البيع بالجملة والبيع بالتجزئة[4].

يتضح لنا مما سبق أن مدن الهانزا الألمانية نجحت فى تحقيق الاحتكار التجارى نتيجة لما

=- عن قوانين عام 1366م للمجلس الهانزا المحلى والتى قررت فيه: "أنه لا يحق لأى شخص أن يتمتع بامتيازات الألمان، إلا إذا كان مواطنًا من مواطنين مدن الهانزا الألمانية. انظر:

- Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.58.

(1) Daenell, Die Blutezit Der Deutschen Hanse, P.37.

(2) Daenell, Die Blutezit Der Deutschen Hanse, P.37.

(3) Daenell, Die Blutezit Der Deutschen Hanse, P.37.

(4) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.48.

- من ذلك ما حصل عليه تجار لوبيك Lübeck من الملك فالديمار Waldemar، عام 1203م،حيث منحهم حق البيع لبضائعهم جملة وتجزئة وذلك فى أسواق Falsterboو Skonor . عن ذلك انظر:

- Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1203, P.12.

حازته من امتيازات وما امتلكته من مراكز للتجارة الخارجية، كما تحكمت فى المواد والسلع الأساسية التى لا غنى عنها مما جعل الملوك يغدقون عليها الامتيازات إلى جانب ما قامت به هذه المدن من فرض الحظر التجارى كسلاح دفاعى أثبت فاعليته على مدار سنوات طويلة، إذ دائمًا ما كانت تتمكن من خلاله من الحفاظ على امتيازاتها.

2 – الازدهار الاقتصادى وتطور النظم والمعاملات المالية للعصبة الهانزية:

ازدهرت التجارة الهانزية ازدهارًا واسعًا، منذ أن سيطر التجار الألمان على منطقة بحر البلطيق، إذ مع التوسع الاستعمارى الألمانى فإن الأداء الاقتصادى أخذ ينمو بسرعة، خاصة مع وفرة المواد الخام، والسلع بكل أنواعها، والقدرة كذلك على جلب السلع الاستهلاكية وسلع الترف، من غرب وجنوب أوروبا ومن الشرق وصولا إلى ألمانيا، وبحر الشمال الهولندى، كما تولى الألمان مسئولية الوساطة التجارية[1]، فما كان يحصل عليه التاجر الألمانى من المنتجات الروسية والاسكندنافية وغيرها من أجزاء أوروبا – وبغض النظر عن المنتجات الخاصة بمدنه كان يوزعها إما داخليًا أو فى الأسواق العالمية المشهورة والموجودة فى بروج ولندن، وقد كانت الهانزا فى ذلك الحين هى الوسيط الوحيد بين الشرق والغرب، وعلى مدار ما يزيد عن ثلاثة قرون فإن بروج حافظت على مكانتها كسوق مركزى لجميع أوروبا من ناحية جبال الألب، وهنا فإنه كان بمقدور التجار القادمين من كافة الأنحاء أن يلتقوا وكان بمقدور الصيارفة وصرافى العملات الأجنبية[2]، الفلورنسين

(1) Daenell, Die Blutezit Der Deutschen Hanse, PP.3-4.
– عن تغيرات التنمية الاقتصادية فى غرب أوروبا، ونسبة مشاركة الألمان فى التجارة فى القرن الرابع عشر الميلادى. انظر:
- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, PP.140 – 180.

(2) كان من المستحيل أن تقوم الأعمال التجارية فى المعارض والأسواق بدون وجود خدمات من قبل صرافى المال، (الذين يقومون بتغيير العملات)، والذين يجلسون على أهبة الاستعداد لتغيير كافة العملات الجيدة إلى أى عملة يطلبها العملاء وذلك نظرًا لأن كثيرًا من الأمراء الإقطاعيين كانوا يمتلكون حق سك عملات خاصة بهم، مما أدى إلى وجود عدد كبير جدًا من العملات داخل الأسواق الأمر الذى جعل الحاجة ماسة إلى وجود صيارفة، يبدلون النقود للتجار كل بالعملة التى يطلبها والتى يستطيع أن يتعامل بها فى بلده، ويعتبر عمل هؤلاء الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفى الرأسمالى، ذلك لأن الصراف فى العصور الوسطى كان طوال اليوم يعرض كومة من القطع النقدية على منصته فى الساحة العامة أما فى الليل فإنه يغلق عليها صندوق =

Florentine والأسبان Spanish، والبرتغاليين Porthgeses، والفرنسيين French، والباسك Bosque، والإنجليز Enghlish، والاسكتلنديين Scotch، وسكان شمال وجنوب ألمانيا North and South Germans، ومن بروج كان يتثنى لتجار البلطيق توريد المنتجات القادمة من الشرق إلى بلادهم وإلى ألمانيا الشمالية، والتى كانت تجلبها ألمانيا الجنوبية من البندقية عبر الممرات الألبية على طول مدن الراين Rhine، وفى بروج يمكن للتاجر أن يشترى فواكه حوض البحر المتوسط، وحرير فلورنسا Florence، وزيوت بروفانس Provence وخمور أسبانيا وإيطاليا، وهذه اللقاءات التى كانت تجمع التجار كانت تحدث عادة فى أوقات ثابتة، ومن ثم أصبح التبادل التجارى أكثر سهولة وأكثر دقة وهذه العادة (يعنى الاجتماعات المنتظمة) وضعت الأساس للمعارض (الأسواق) السنوية لتبادل السلع[1].

= حديدى يضعه تحت حراسة شديدة، تعرف بالخزنة حيث كانت فى انجلترا عبارة عن منضدة رباعية الزوايا يبلغ طولها غالبا عشرة أقدام وعرضها خمسة أقدام يلتف الناس حولها كما يلتفون حول مائدة العشاء، ولها حافة عالية يبلغ ارتفاعها حوالى خمسة أصابع حتى لا يقع أى شىء يوضع عليها، كما يتم وضع قماشة عليها هذه القماشة ليست كأى نوع من أنواع الأقمشة، لكنها سوداء موضوع عليها أشرطة وكل شريط من هذه الأشرطة مفصولة عن الأخرى، ونظرًا لامتلاك الصراف مثل هذا الصندوق القوى فإن الناس لجأوا إليه ليودعوا أموالهم عنده لتكون فى مأمن لديه، كما اقترضوا منه المال وأعطوه بضائع بقيمته كضمان لهذا المال، وبالتالى أصبح الصراف حافظًا للمال ومقرضاً له فى نفس الوقت، إذ أنه عندما رأى أن لديه مالاً كثيرًا من الودائع، وبصورة أكثر مما يحتاجه لمتطلبات التجارة اليومية فإنه بدأ فى إخراج هذا المال غير المستعمل مقابل فائدة كما لو كان هو صاحب المال، وعليه فلقد أصبح مقرض المال صرافًا، وبذا أصبحت للمصارف مهام متعددة، مثل الإقراض فى شكل قراض (مشاركة) وتغيير العملات فى المعارض، وبنوك للتجار. ذلك انظر:

- Thompson, Johnson, Medieval Europe, P.571.
- Pirenne, Cohen, Focillon, La Civilization, Tome VIII, P.118.
- Stubbs, Select Charters of English, A.D. 1177, PP.201 , 212 , 224.

– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج2، ص 113؛ ر. لوبيز، ثورة العصور الوسطى التجارية 950 – 1350 م، ترجمة / محمود أحمد أبو صوة، منشورات ELGA، مالطا، 1997م، ص 102.

– هكذا تطورت أعمال الصرافة فى أوروبا العصور الوسطى، وقد كان للإيطاليين نصيب الأسد فى مثل هذه الأعمال المصرفية. لمزيد من التفاصيل انظر:

– زينت أبو الأنوار السنيطى، أسواق وتجار أوروبا، ص ص 225-231.

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.100.

– كانت سوق بروج، أحد الأسواق الخمس المشهورة بالفلاندرز، بحكم موقعها مركزًا للنشاط التجارى =

obeikandl.com

يتضح لنا مما سبق مدى ما تمتعت به مدن العصبة من ازدهار اقتصادى داخل بروج وخارجها بحكم نشاطها الاقتصادى السابق، وبما تمتعت به من السيطرة الاحتكارية على الملاحة الأوروبية الغربية – خصوصًا مع نمو وازدهار الصناعات فى الغرب، مثل صناعة النسيج فى الفلاندرز – حتى أصبح من غير الممكن الاستغناء عن التجارة الألمانية[1] – فقد شارك أعضاء الهانزا فى التجارة المزدهرة فى بحر البلطيق وبحر الشمال على مدار ثلاثة قرون، ومن ثم ازداد ثراء تجار الهانزا وازدادت مدنها ثروة[2].

ظهر مصدر آخر من مصادر الثروة للمدن من كونها ليست فقط مدناً تورد متطلبات الشعب فحسب بل أيضًا لكونها كانت متعهدة بتوريد المؤن للأمراء والطبقة الارستقراطية.

إننا نجد فى كتبهم أنهم (يقصد بهم الأمراء والطبقة الارستقراطية) كانوا كثيرًا ما يتجمع عندهم مبالغ مالية كبيرة من الديون الناتجة عن شراء الفراء وثياب الفلاندرز والخمور الممتازة (الفاخرة) وكانت هذه المدن أيضًا فى كثير من الأحيان تقوم بأعمال الصيرفة فنرى مدينة لوبيك والتى تعد مركز الصفقات النقدية كانت تحتل مكانة كبيرة فى الاستثمارات المالية حتى فى المناطق النائية من السويد فإن شعبها لم يعرف طريقه أفضل للاستثمار المالى من أن يستودعه لدى تجار لوبيك[3]، الأمر الذى يظهر أن تجار لوبيك عملوا كصيارفة للمال إلى جانب أعمالهم التجارية الأخرى فى النقل والوساطة وتنظيم القوانين التجارية الخاصة بالعصبة.

أدركت العصبة الهانزية أهمية الدعم الاقتصادى، إذ يؤكد جوستافسون Gustavson

---

= المزدهر فى الشمال، لمزيد من التفاصيل عن أسواق الفلاندرز. انظر:

– زينب أبو الأنوار السنيطى، أسواق وتجار أوروبا، ص ص 127-139.

– لا يزال أحد هذه الأسواق قائمًا حتى اليوم فى ألمانيا وهو يحظى باهتمام قليل ويسمى معرض ليبزيج الكبير The Great Fair of Leipzig حيث يلتقى الناشرون الألمان فى هذا المعرض (السوق) لتبادل المنتجات الثقافية. عن ذلك انظر:

- Zimmern, The Hansa Towns, P.100.

(1) Daenell, Die Blutezit Der Deutschen Hanse, PP.4-5.

- عن مشاركة المدن الألمانية فى تجارة النسيج المزدهر منذ القرن الثالث عشر. انظر:

- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen grundlag, PP.129 – 233.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.41.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, PP.100-101.

على "ضرورة الدعم الاقتصادى"، حيث يعده بأنه الأكثر أهمية بالنسبة لأى مؤسسة ولنزيد الأمر وضوحًا فإنه يقول " الحيوية – الرفاهية – الحفاظ على الذات" فإن الكيان المؤسسى يجب أن يعتمد على الاكتفاء الذاتى مالياً، ولذا يجب أن يكون هناك بعض موارد للثروة المؤسسية والدخل وفى الوقت الذى يصعب النقاش فيه حول الدعم المالى الجيد للمؤسسة المزدهرة إلا أن هذا المعيار الأول للمؤسسة ربما يعد الأكثر غموضًا فى حالة الهانزا[1].

وحيث أن التنظيم لم يكن محدداً فإن الهانزا لم تقم بجباية أى ضريبة نظامية أو رسوم على أعضائها ومن ثم لم يكن لها خزانة مركزية، وبسبب الصورة المؤسسية المتزعزعة التى اتبعوها من أجل الحصول على الربح من شركائهم فى التجارة الخارجية فإن نطاق العضوية لم يكن محددًا على الصعيد الدولى، وحيث أن حماية مثل هذه الخاصية الغامضة يعد أمرًا نافعًا فى بعض الأحيان، إلا أنه كان ضارًا بالمؤسسة الهانزية خاصة عندما تغيرت الظروف السياسية وتطلب الأمر دستورًا موحدًا وأكثر قوة.

وفى مراحل التاريخ الهانزى فإننا لا نجد رسومًا نظامية يقوم الأعضاء بدفعها أما التحديات المالية فإنه كان يتم التعامل معها بطرق أخرى، وفيما يتعلق بتكلفة إرسال موفدين إلى Hansetags فإن هذا الأمر نشأ عن طريق مدن أعضاء فردية، وكذلك نفقات التشغيل السنوية للمحطات التجارية فإنه يتم تمويلها محليًا عن طريق الرسوم المفروضة على السلع المصدرة وإيجار المساكن، والغرامات التى يتم جبايتها من الأعضاء المخالفين أما النفقات غير المنتظمة لسفن التجار المجهزة فإنه يتم جباية رسوم عسكرية تعرف بـ Pfundzoll أو الضريبة النسبية وكانت تفرض فقط

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.40.
– كانت الهانزا تسعى إلى جمع أموال من أجل نفقات الحرب بصورة دورية تعرف بـ Pfundzoll، ومن أجل بعض الأعمال العمرانية، إلا أن الكثير كان يتهرب من دفعها، فكانت تضطر إلى توقيع عقوبات على المقصرين كما مر بنا من قبل.
– يجب أن نسلم بأنه فى القرون الوسطى، تم سن العديد من القوانين الخاصة بالسياسة الاقتصادية وهذه القوانين تكون متعلقة بأمور نعتبرها اليوم بأنها أمور هامشية أو خارجة ، عن السياسة الاقتصادية فى العصور الوسطى. انظر:
- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.398 – 405.

على مواد الحرب (وإن حدث تردد نسبى فى أواخر القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر الميلادى) [1].

لذلك فإن الظروف التجارية فى تلك الآونة كانت مختلفة تماما عما هى عليه اليوم والأهم من ذلك أنه كان على التاجر أن يعمل بنفسه أكثر فلم تكن فى تلك الفترات مكاتب للبريد ومن ثم فإن الطلبيات والعقود كان قلما يمكن إتمامها خطابيًا حيث أنها فى أغلب الأحيان تحتاج إلى مبعوث خاص لحملها[2]. وعليه فإن القاعدة أن يصحب التاجر سلعته فى البحر والبر ومن أجل توفير حماية أكبر وتقليل النفقات فإن العديد من التجار كانوا يجتمعون سويًا لاستئجار سفينة لقد كان من المعتاد أن يهتم ربان السفينة ببيع السلع وكما يتم توجيه النصيحة إلى كل راكب على ظهر السفينة بأن يهتم بإنزال السلع بأمان إلى الأراضى وبيعها بربح عال، وهذه العادة ظهرت نتيجة المخاطر الناشئة عن تربص اللصوص والقراصنة للسلع، بينما كانوا لا يعرفون كيفية تأمينها أثناء النقل، وبإغراء القبطان وطاقم السفينة ماليًا فإن احتمالية إلقاء البضائع من أعلى السفينة حال هبوب العواصف أو مهاجمة القراصنة الذين كانوا يهاجمون السفن ويسلبون ما بها دون أن يقاومهم أحد.

إذا كان السفر بحرًا غير آمن فإن السفر برًا غاية فى السوء، فالطرق كانت قليلة ومكدسة بالطين وبها تلال مرتفعة ومن ثم فلم يكن بمقدور أقوى الخيول جر العربات كما تسببت كثرة قطاع

(1) لم تبذل أى جهود من أجل تحصيل الرسوم من العضوية العامة حتى اجتماع عام 962هـ / 1554م عندما قاموا بجبايتها بعد ذلك من المدن الثلاث والستون، وهذا العمل جاء متأخرا وكان بمثابة محاولة غير مجدية لدعم طابع المؤسسة الهانزية، حتى هذه المحاولة سرعان ما فشلت عندما لم يشارك العديد من المدن الأعضاء بها.عن ذلك انظر:

- Quesenbery, The Institutional Success of the German Hanse, PP.40 – 41.

(2) فى نهاية العصور الوسطى ابتكر رجال المال بعض التقنيات اللازمة للأعمال التجارية والتى جاء على رأسها استخدام الدفاتر الخاصة بالمعاملات المالية مثل دفتر الأستاذ ودفتر اليومية والذى أخذ فى الانتشار بصورة كبيرة جدًا فى فلورنسا فى القرن الرابع عشر الميلادى عن ذلك. انظر:

- بيشوب، تاريخ أوروبا، ص 228.
- عن تطور الصكوك والدفاتر والمقاصات فى أوروبا العصور الوسطى. انظر:
- زينب أبو الأنوار، أسواق وتجار أوربا، ص ص219-225.

الطرق فى خوف التجار من ارتياد الطرق البرية، وكما نعلم فإن الكثير من هؤلاء كانوا يعملون سرًا لحساب السادة الإقطاعيين ومن ثم فإنه من الطبيعى أن يغض الطرف عن الطلبات المتكررة من التجار لتنظيم الطرق العامة بشكل أفضل، أضف إلى ذلك أن كل سيد كان له الحق فى طلب الرسوم على السلع المارة فى الأقاليم الخاضعة له وكانت بوابات الرسوم قريبة جدًا من بعضها البعض، فعلى سبيل المثال ففى المسافة الممتدة على بعد خمسين ميلا من هامبورج كان التاجر يقابله ثمانى بوابات، ولحسن الحظ فإن جداول الرسوم فى هذه الأيام لم تكن معقدة فكان يتم دفعها عن طريق عربات الشحن أو حمولة السفينة بغض النظر عما تحمله[1].

وهكذا عانى تجار الهانزا مثلهم مثل غيرهم من التجار الآخرين من كثرة الضرائب وأخطار السفر والتى لم يكن من الممكن التغلب عليها إلا عن طريق تطور النظم والمعاملات المالية مستعينين فى ذلك بالامتيازات التى حصلوا عليها من الملوك والأباطرة منذ تاريخهم المبكر والخاصة بالإعفاء الضرائبى أو تخفيف بعضها، مثلما قام به هنرى الثانى Henry II مع تجار كولونيا القادمين إلى أراضيه فى عام 552هـ/ 1157م[2]، وكذلك براءة فردريك الثانى Frederick II 591 – 684هـ / 1194 – 1250م، للوبيك من أجل التحرر من ضريبة المكس في كولونيا[3]، وغيرهما من الملوك والكونتات، الأمر الذى أدى إلى ازدهار التجارة وإزاحة المعوقات عنها.

كان التطور والازدهار التجارى الذى شهدته العصبة الهانزية يتطلب تطور النظم والمعاملات المالية إذ الجدير بالذكر أن التجارة فى ذلك الوقت كانت منظمة تنظيمًا صارمًا وهو ما يعرف باسم العمل التجارى الحقيقى للتاجر، أما المضاربة فلم يكن لها وجود يذكر، ولم يكن التفويض والوكالة أمرًا غير معلوم لكن لحسن الحظ لم يكن هناك وجود للكوارث المضرة التى تتعرض

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.101 – 102.
(2) Lappenberg, Urkundlich Geschichte, Part II, A.D. 1157, P.3.
- من ذلك إعفاء الإمبراطور فردريك بربروسا Frederick Barbarossa، من خلال براءته الخاصة بإقامة معرضي أخن Aachen، التجار من كل ضريبة. عن ذلك انظر:
- Menadier, Urkunden und Akten zur Aachener, PP.275 – 576.
(3) Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1226, P.27.
- مثل إعفاء كونت الفلاندرز لمواطنى سانت أومير ومواطنى الفلاندرز عن ذلك انظر:
- Kemble, The Saxons in England, Vol. II, P.528.

لها التجارة الحديثة من المساومات والتى تسمح ببيع السلعة عشرات المرات قبل وجودها، فالأمانة كانت تقتضى فى ذلك العصر أن يتم بيع ما هو موجود (معروض) وهو ما يعرف بالتجارة الحقيقية، ومن ثم فيمكن دعم وتطبيق المبدأ القائل (السلعة بالسلعة أو بالنقد) وفى مناطق معينة فى روسيا على سبيل المثال كانت المقايضة أشهر من الدفع النقدى[1]، فقد كان التجار الألمان فى نوفجورود Novgorod، على سبيل المثال يستخدمون فى الدفع عددًا من رؤوس حيوان الدلق وعددا من الأغطية، على أن ذلك لم يمنع استخدامهم كذلك النقود فى التعامل فكانوا يستخدمون المارك Mark، والكاينون Kunen للدفع[2]، الأمر الذى يعنى أن المقايضة والدفع النقدى كان يتم استخدامها معاً كوسيلة من وسائل التعامل التجارى، والتى ظلت قائمة طوال العصور الوسطى.

أما فيما يتعلق بالائتمان[3]، فإنه كان ممنوعًا منعًا باتًا فى مدن معينة وفى فروع تجارية معينة، فلو سمح بالائتمان فإن على المقترض أن يجد ضمانًا، فإذا وجده يكون أمرًا غاية فى الصعوبة، حيث أن الرياح قد تأتى بما لا تشتهى السفن، وهذا ينتج عنه فقدان الممتلكات بل وفى كثير من الأحيان

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.103.

- قد اختلق الاقتصاديون الألمان لفظ Natural Wirtschaft (المقايضة)، و"الاقتصاد الطبيعى" لوصف الفترة السابقة لاستخدام النقود على أنه من الخطأ أن نظن أن نظام المقايضة آنذاك قد حل محل النقود كأداة طبيعية للتعامل المالى فالمقايضة كانت دائمًا ما تستخدم فى المخالطة الاجتماعية، وهذا الأمر ما زال كثيرًا فى أيامنا كما كان فى الماضى، عن ذلك انظر:
- بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص 103، 104.
- قد أورد لنا الأستاذ لوبيز عددًا من الوثائق فيما يتعلق بالمبادلات التجارية، من واقع الوثائق الخاصة بإيطاليا اللومباردية، حيث توضح إحدى هذه الوثائق انتشار التبادل فى النوع، إضافة إلى التبادل النقدى، الذى يعتبر ظاهرة عالمية فى أوروبا الغربية فى العصور الوسطى، بالرغم من أن الاقتصاد المالى وجد فى إيطاليا بصورة أفضل من أى مكان آخر عن ذلك انظر:

- Private Documents of Lombard Italy, in: Lopez, Raymond, Medieval Trade, PP.41 – 48.

(2) Privileges Granted to German Merchants at Novgorod, in: Sartorius, Urkundliche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

(3) ظهر فى القرن الحادى عشر الميلادى نظام ائتمان مصرفى(أوإقراض) بشكل بدائى يتناسب فقط مع نظام الاقتصاد الطبيعى، الذى لم يتوافر معه إنتاج نشط للسوق، ولا تجارة واسعة الانتشار، وإنما بدأ الاتجاه ناحية القروض حتى تلبى الاحتياجات الأولية فحسب. عن ذلك انظر:

- Boissonnade, Life and work, PP.165 – 166.

فقدان الحرية الشخصية[1]، لعلهم فى ذلك كانوا متأثرين بآراء الكنيسة التى اعتبرت أى اهتمام بهذا النوع من القروض أو الائتمان هو ربا[2]، لكن ضروريات الحياة والعمليات التجارية والصناعية أدتا إلى تنمية القروض لزيادة الإنتاج، والتى فيها يقدم رأس المال لخدمة المقترضين لتحقيق زيادة فى عملهم، وأرباحهم[3]، كان اليهود هم من بيدهم عملية الإقراض فى البداية نظرًا للتحريم المسيحى له، ومع الزمن أصبح اليهود فئة مكروهة فى أوروبا كمرابين ودائنين، وتضاعف الشعور تجاههم نتيجة للديون التى تراكمت على التجار لكنهم تحملوا ذلك لحاجتهم إليهم، وفى بعض الأحيان كان يتم مصادرة أملاكهم من قبل بعض ملوك أوروبا[4].

كان لانتعاش التجارة، واكتشاف نتائج رأس المال السائل أكبر الأثر فى تغيير الوضع فى أوروبا، إذ أصبح من الصعب الإبقاء على القواعد القديمة، فتحايل المقرضون بشتى الطرق لإخفاء قيمة القروض الحقيقية فى العقود عن طريق وضع رأسمال أكبر من القيمة الحقيقية المذكورة فى العقد أو عن طريق أخذ دفعات تعويضية خصوصًا عند أى تأخير فى السداد[5]، بل إن بعض رؤساء الأديرة قاموا بأخذ قروض بفائدة من المرابين[6]، حتى انتشرت القروض فى أوروبا بما فيها الأديرة

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.103.

(2) الربا: جاء فى تعريفه أنه ما دل على الفضل والزيادة من ربا الشيء يربو أى زاد ونما بينما اصطلح على تعريفه فى الشرع بأنه الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايع عن ذلك انظر:

- أحمد بن محمد على المقرى الفيومى، ت عام 770هـ، المصباح المنير "فى غريب الشرح الكبير"، ج1، ط3، المطبعة الأميرية، القاهرة، 1912م، ص ص 333 – 334؛ طاهر أحمد الزاوى الطرابلسى، ترتيب القاموس المحيط على طريقة المصباح المنير، وأساس البلاغة، ج2، ط1، مطبعة الرسالة، 1959م، ص 277؛ ابن منظور، لسان العرب، ج3، دار المعارف، القاهرة، د. ت , ص ص 1572 – 1573.

(3) Boissonnade, Life and work, P.166.

(4) Painter, History of the Middle ages, P.237.

- عن اليهود وعملهم كمرابين، ومصادرة ممتلكاتهم. انظر:
  - Cave, Coulson, A Source Book, P.179.
  - See Also: Migne, Patrologiae Cursus Completus, Vol. CCXV, A.D. 1204, PP.501 – 503.

(5) Boissonnade, Life and work, P.166.

(6) Santrni (P.), Documenti dell' Antica Costituzione del Comune di Firenze, Vol. I, in Documenti di Storia Italiana, Tome X, Florence, 1895, A.D. 1203, P.372.

نفسها مما أدى إلى انتهاك القوانين الكنسية[1].

شملت عقود القروض الحصول على فوائد عليها حتى وإن لم يصرح بها وتوارت خلف المسميات الأخرى، كالتأخير وغيره كما يظهر لنا أهمية القروض فى أن التجار فى القرن الثالث عشر الميلادى، اختلقوا الوسائل من أجل تفادى تحريم الربا.

كان لازدياد عدد المقرضين المسيحيين أن قل الطلب على اليهود، لذا تم طردهم كلية من انجلترا وفرنسا فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، حيث توافر لدى العديد من التجار رأسمال كبير مكنهم من استخدامه فى عملياتهم التجارية حتى انهم عندما بحثوا عن طرق أخرى لاستخدامه لجئوا للإقراض[2]، ومن هنا انتشر الإقراض فى العديد من المدن التجارية التى اشتهرت كمدن للمولين، مثل مدينة أراس Arras فى الفلاندرز Flanders والتى اشتهرت فى مستهل عصر فيليب أغسطس[3] Philip

(1) Aloan to a Monays tery: in, Cave Coulson, A source Book, P.175.

- عن أحد هذه القروض والأمور المتعلقة بها. انظر:

- Chronica Jocelini de Brakelonda, J.G. Rokewode, Ed., London, 1840, A.D. 1173, P.2.

- قد أثارت مسألة القروض وأخذ ربا عليها رجال الكنيسة خلال العصور الوسطى، فكتبوا كثيرًا فى هذا الموضوع إلا أن أكثر الكتابات اعتدالا وعمقا كانت كتابات سانت توما الأكوينى Thomas Aquinas 622 – 673هـ/ 1225 – 1274م، إذ ان كتاباته عن الربا – دلت المفكرين فى أيامه وأثرت علي ممارسة التجارة كثيرًا، فبينما أدرك وظيفة المال كوسيط للتبادل لم يشعر بوضوح بعلاقتها بمنح القروض، وكان متأثرًا فى ذلك بمذهب أرسطو، فى أن المال عقيم وكان الدافع فى الاقتراض هو العامل المحدد للفائدة، ولكن الفائدة المسموح بها لم تكن تدفع فى مقابل استخدام المال ولكنها تدفع كتعويض للمقترض عن التلف الذى يعانيه بسبب الدين. عن ذلك انظر:

- Cave, Coulson, A source Book, PP.181-182.

- للإطلاع على بعض كتابات توما الأكويني في هذا الموضوع. انظر:

- St. Thomas Aquinas, Summa Theologica, Translated by Fothers of the English Dominican Province, London, 1918, A.D. 1269, PP.330 – 340.

(2) Painter, History of the Middle ages, P.237.

(3) فيليب أغسطس: تنبأ له المعاصرون منذ طفولته بالقوة والعظمة ،امتاز عهده بازدياد قوة الملكية الفرنسية فى الداخل والتوسع فى الخارج وهى نتائج توصل إليها بعد سلسلة من الإصلاحات الداخلية الواسعة التى منحته قوة جعلته خطرًا على خصومه فى انجلترا ونورمنديا والفلاندرز وألمانيا وجنوب فرنسا، قد حكم مدة قاربت أربع وأربعين سنة وهى مدة طويلة أتاحت له فرصة تأكيد حقوقه الإقطاعية. عن ذلك انظر:

- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 261 عن أعماله انظر نفس الكتاب، ص ص 261 – 274.

Augustus 1180 – 1223م بأنها مدينة الممولين[1].

ولم تكن مدينة آراس وحدها هي من اشتهرت كمدينة للموليين، بل إن هناك مدنا أخرى فى الفلاندرز حازت نفس الأهمية، فقد أصبحت بروج Bruges، بحلول القرن الرابع عشر الميلادى، مركزاً مالياً وتجارياً مهما يتردد عليه تجار جنوة والبندقية وفلورنسا ولوكا فضلا عن تجار ألمانيا وفرنسا وانجلترا[2]، وأقام التجار الجنوية والبنادقة والفلوريسنون قنصلياتهم فى ميدان دى لا بورص Place de al burse، الذى اشتق اسمه من حانة تمتلكها عائلة فادى بورص[3]، وأصبحت الحانة مكان اجتماع عام للتجار ومركزًا لتجارة الكمبيالات[4].

نستطيع أن نؤكد أن الأعمال الائتمانية وجدت بكثرة فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى حتى وإن كانت ممنوعة منعًا باتًا فى مدن معينة، إلا أن مدنا مثل مدن الفلاندرز والمدن الإيطالية كانت ميدانًا واسعًا لمثل هذا النشاط المالى خاصة فى القرنين الثالث والرابع عشر الميلاديين، كما فى مدينة بروج تلك المدينة التى كانت فى ذلك الوقت تمثل أحد المحطات التجارية لمدن العصبة الهانزية.

كانت الأقساط عادة ما يتم دفعها بعملات مسكوكة، لكن أحيانًا ما كانت تستخدم سبائك الفضة خاصة فى روسيا، أما الكمبيالات فلم تكن مجهولة كلية فى هذا الوقت.

فقد كان هناك قانون يلزم بدفع الكمبيالات كما فى مدينة لوبيك أو بروج[5]، وليس أدل على ذلك مما ورد فى كتاب بيلوتى الإيطالى عام 741هـ / 1340م بأن سوق كمبيالات بروج كان سوقًا عالى التنظيم بالفعل له سماسرة محترفون يجمعون بين البائع والمشترى ويتقاضون عمولات

(1) السيد الباز العرينى، الحضارة والنظم الأوروبية، ص 211.
- عن إقراض المال بفائدة برغم تحريم الكنيسة. انظر أيضاً:
- Zimmern, The Hansa Towns, P.104.

(2) عن ميناء بروج Bruges وأهميته التجارية. انظر:
- Pirenne, Cohen, Focillon, Le Civilization, Tome VIII, P.127.

(3) قد شاع استخدام هذا الاسم (بورص) إشارة إلى التبادل كما أطلق على مكان اجتماع التجار منذ القرن الخامس عشر الميلادى. عن ذلك انظر:
- فيكتور مرجان، تاريخ النقود، ترجمة/ نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2001م، ص 150.

(4) فيكتور مورجان، تاريخ النقود، ص 150.

(5) Zimmern, The Hansa Towns, P.103.

على خدماتهم، بل إن شكل الكمبيالة أصبح بنهاية القرن الرابع عشر الميلادى عصريًا على نحو مذهل[1].

ارتبط ازدهار النشاط التجارى بعودة حركة النقود التى انحسرت فى أنحاء المراكز التى ضربت فيها وبدأت النقود تسافر مع التجار، ومن كل الأنحاء سحبت نقود من كل الأنواع بواسطة التجارة إلى المدن والأسواق التجارية ولقد أصلح التداول المتزايد للنقد النقص الواضح فى المعادن المطلوبة لسك العملات، زيادة على ذلك فإن اكتشاف معادن الفضة فى فريبرج Freiburg[2]، فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى جلب مؤنا جديدة لتغذية العملة، ومع ذلك لم يكن المعدن كافيًا على الدوام لسك العملات المطلوبة للتجارة حتى نهاية العصور الوسطى، ولم يزد إنتاج الفضة السنوى فى أوروبا إلا بعد منتصف القرن الخامس عشر الميلادى[3]، فقد زادت الحاجة للنقود المسكوكة بصورة كبيرة جدًا، فلم يكن لدى أوروبا الغربية مناجم ذهب، ولم يتوفر هذا المعدن الثمين من أجل سك العملة بصورة كبيرة حتى القرن الرابع عشر الميلادى وكان المال المتوفر لدى أوروبا الغربية فى أوائل العصور الوسطى من الفضة، إذ لم يكن متوفرًا هناك سوى بضعة عملات معدنية ذهبية فى إيطاليا.

كانت العملة المعدنية الأساسية هى الدنيير denarius الفضى، أو البنى Penny الفضى، والتى كانت عشرون من هذه العملات يساوى إثنا عشر صولدى Solidus أو شلن Shillign، وعشرون صولدي تساوى جنيهاً وكان هناك المارك الذى يساوى ثلاثة عشر شلنا Shillings وأربع بنسات Pence وقد تم استخدام الشلنات Shillings، والجنيهات Pounds، والماركات كمجرد عملات من أجل المحاسبة ولم تستخدم فى التعاملات العامة الفعلية.

كان كل واحد من السادة يقوم بسك العملة على حسب معاييره الخاصة فى الوزن والنقاوة

(1) فيكتور مورجان، تاريخ النقود، ص 150.

(2) فريبرج Freibug: تقع مدينة فريبرج جنوب شرق ألمانيا على نهر Freiberger Mulde، عند الطرف الشرقي من بلدة Evzegebrige، جنوب غربي مدينة دريسدن Dresden. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. IV, P.305.

(3)بيرين، تاريخ أوروبا، ص ص 109 – 110، عن اكتشاف المهاجرون والألمان لمناجم فريبرج فى ساكس عام 566هـ/ 1170م. انظر أيضًا:
- إدوارد بروى، القرون الوسطى، ج3، ص ص 401 – 402.

obeikandl.com

ويقوم بتغيير المعايير حسب رغبته، وقد بدأ ذكر النقود وارتفاع شأنها فى شمال فرنسا وانجلترا فقط فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين[1] – الأمر الذى تطلب من التجار على رأسهم تجار العصبة الهانزية – اتخاذ موقف حازم فيما يتعلق بإصدار العملة كما سنرى فيما بعد عند اتحادهم معًا.

لم يختلف الوضع بالنسبة لمدن العصبة الهانزية – على رأسها لوبيك – فيما يتعلق باستخدام الفضة فقد كانت الفضة عملة رئيسية حتى القرن الرابع عشر الميلادى عندما تم السماح لمدينة لوبيك بسك الذهب [2]، إذ لم تكن أوروبا لتتمكن من توسيع تجارتها بشكل كبير إلا بالعودة إلى معيار الذهب، لأن معيار الفضة ظل سائدًا فى غرب أوروبا منذ العصر الكارولنجى وحتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى، فكان الدنيير denier الفضى هو الأكثر ضرباً والشلنات Shillings والجنيهات كانت أموال حسابات، بينما كانت العملات الذهبية هى العملات الشرقية مثل الهيبربير Hyperper[3]، البيزنطى أو البيزانت Bezants[4]، والدنانير الإسلامية[5]، وأرباع الدينار والتى تم تقليدها وبدأت تضرب فى الغرب[6]، وهكذا استخدمت العملات الذهبية حيث سكت جنوة أول دنيير Deniers ذهبى عام 650 هـ/ 1252م، وتلتها فلورنسا بعد أشهر قليلة فسكت الفلورين الذهبى وفى النهاية ثبتت كل دول غرب أوروبا العملات الذهبية[7]،

(1) Painter, History of the Middle ages, PP.235- 236.
(2) Zimmern, The Hansa Towns, P.103.
(3) الهيبربير: هو الاسم الذى أطلق على البيزانت فى القرن الثانى عشر، كما عرف البيزانت باسم النومسيما Nomisma وهو الوريث الشرعى للصوليدس البيزنطى Solidus وأول من أطلق عليه نومسيما هم الإغريق ثم عرفوه بالبيزانت ثم اتخذ اسم الهيبربير. عن ذلك انظر:
– هناء الراشد، التاريخ السياسى لإمارة قطالونيا، ص 534، حاشية (2).
(4) البيزانت: بعد سقوط الإمبراطورية الغربية، أصبح الصوليدوس الذى سكه قسطنطين هو العملة الذهبية للإمبراطورية البيزنطية حتى عام 500م، وكان يزيد عن 105 حبة، وبدأ البيزانت ينخفض قيمته بعد عام 900م، كان يتداول فى أوروبا كلها كعملة رئيسية حتى ظهور العملة الذهبية الايطالية فى القرن الثالث عشر الميلادى. عن ذلك انظر:
- Cave, Coulson, A Source Book, P.424.
(5) الدينار: عملة ذهبية إسلامية تزن 4.333 جم كسبيكة ذهبية. عن ذلك انظر:
– فالترهنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص 29.
(6) Lopez, Raymond, Medieval trade, P.145.
(7) Lopez, Raymond, Medieval trade, P.145. =

فقد قامت لوبيك فى القرن الرابع عشر الميلادى، بسك عملة ذهبية هى الجلدر Gulders، على نفس نمط الدوكات الفلورنسية Florentinc ducats[1]، كان يتم شراء الذهب الذى يتم سكه من مدينة بروج، ويجب أن نتذكر أن المال كانت له قيمة أعلى فى تلك العصور مما هو عليه الحال فى عصرنا الحاضر وإذا أردنا أن نعقد مقارنة بين قيمته فى تلك العصور وقيمته فى عصرنا الحاضر فيجب أن نضرب النائج فى سبعين أو خمس وسبعين.

وكانت الطريقة المتداولة للحساب هى الطريقة الفلمنكية Flemish، وهذا يعنى أن جنيها واحدًا يساوى عشرين شلناً Shilling، كل شلن باثنى عشر حبة Groats وهذا هو الحساب الدقيق للعملة الموجودة فى انجلترا إلى يومنا هذا، فالجنية المالى هو فى واقع الأمر وزن، وأفضل عملة مالية كانت عملة لوبيك، والأهم من ذلك أن الإنجليز كانوا يتعاقدون على الدفع بجنيهات الشرقيين Easterlings، وهو الإسم الجنسى أو الحركى لتجار البلطيق إن بقاء هذه العبارة إلى الآن دليل على ذلك فحتى يومنا هذا فى انجلترا يتم اختصارها إلى جنيه استرلينى[2].

وهكذا أخذت العملات تنتقل من مكان إلى أخر داخل دول أوروبا العصور الوسطى فمنذ سنة 675هـ/ 1276م ظهر الجروس تورنوى Gros Tournoi[3]، الذى عرف فى ألمانيا

= – هناك وثيقة تقدم لنا موقفاً لاستثمار الدنيير الذهبى Deniers فى التجارة الشرقية. عن ذلك انظر:
- Genoa, February 23, 1259, in: Lopez, Raymond, Medieval Trade, PP.146 – 147.

(1) قامت فلورنسا بسك أول فلورين لها من الذهب، ولم يكن ذلك قبل عام 650هـ/1252م، (Fiorino d'oro) ولقد سمى بذلك لأنه طبع وختم بزهرة السوسن، شعار المدينة، وقد فتح هذا الفلورين الطريق أمام التعامل بالعملة الذهبية فى أوروبا، وسرعان ما تبعت جنوة ذلك، وفى عام 683هـ/ 1284م أصدرت البندقية صورة من الفلورين فى عملتها الدوكات Ducat أو Zechin وكانت هاتان العملتان النقيتان، التى تزن كل منهما ثلاثة ونصف جرام، وساوت فى القيمة جنيه الجروس الفضى كما ساوى الجروس بدوره قيم السو. عن ذلك انظر:
– بيرين، تاريخ أوروبا، ص 114.

(2) Zimmern, The Hansa Towns, PP.103-104.
- كانت مدن الهانزا وعلى رأسها لوبيك قد منحت هي الأخرى امتيازاً خاصاً بالعملة الذهبية والفضية من الإمبراطور لويس الرابع في عام 1340م مع تأكيده لهم في نفس العام كذلك. عن ذلك انظر:
- Asfchenfeldt (ed.), urkundenbuch der stadt Lübeck, Zweiter theil, PP.652, 665.

(3) الجروس تورنو Gros Tournoi: أو Grossus denarius turonensis، قد أوجده لويس التاسع=

باسم الجروشين groschen فى وادى الموزيل، وقبل نهاية القرن الثالث عشر الميلادى وصل إلى كولونيا ومنها انتشر فى الأراضى الألمانية فى الراين الأدنى مثلما انتشر فى كل الأراضي المنخفضة الشمالية، ولقد تساوى النجاح الملحوظ الذى حققه الجروس تورنو مع الاسترلينى العملة الإنجليزية التى تحسنت قيمتها فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى، وصار يسك على غرارها على الفور فى ألمانيا والأراضى المنخفضة، وهكذا فإنه بظهور هذه الجروتات بدأ شكل جديد فى تاريخ النقد، وسرعان ما تم العودة للتعامل بالعملات الذهبية وقدمت إثباتًا آخر للحاجة إلى تزويد التجارة بأداة دفع تكون كافية لمتطلباتها المتزايدة[1].

أدركت مدن العصبة الهانزية أهمية إقامة عملة موحدة لذا قامت لوبيك Lübeck فى وقت مبكر من القرن الثانى عشر الميلادى باعتبارها تتزعم تجارة البلطيق – بعقد اتفاقية مع هامبورج، حيث أدركت مزايا العملة المشتركة والتعاون فيما بينهم فى وقت مبكر بدلاً من المنافسة، وقامت بإعداد الترتيبات مع المدن الأخرى، والتى كانت فى ذلك الوقت عاصمة مركز العصبة الهانزية Hansetic League، والتى كانت تتحكم فى التجارة البحرية للبلطيق وبحر الشمال[2]، وقد نصت الاتفاقية الخاصة بتوحيد العملة فيما بينهما على التالى "إلى كل المؤمنين بالمسيح وإلى هؤلاء الحضور من محامين وممثلى الهيئات ومواطنى هامبورج نوجه لهم التحية من قبل المخلص "يسوع"، نود أن يكون معلومًا للجميع وذلك بدافع من الحب الذى نكنه لكم جميعًا، إننا قد اتفقنا وتحالفنا مع أصدقائنا الأحباء من مواطنى مدينة لوبيك، بأن الدنيير denarii الجديد، الذى سوف يضرب فى مدينتنا وفى لوبيك بالمثل، يجب أن يكون وزنه تسعة وثلاثين صولدى Solidi أقل اثنين دنيير من المارك Mark، ولذلك فإن العملة التى ستتطبق يجب أن يكون الخليط بها نصف أوقية ونحن نلزم أنفسنا بالاتفاق المتبادل بيننا وبين أصدقائنا فى لوبيك، على آلا يقوموا بسك أى دنيير جديد آخر غير هذا دون موافقتنا كما أننا بالمثل لا نقوم بسك أى دنيير دون موافقتهم وزيادة على ذلك أنه فى حالة حدوث وفاة لكل من سادتنا أو الكونتات –لا قدر الله– فنحن فى هامبورج يجب ألا نشك

= ويسمى بذلك نسبة إلى مدينة تور. عن ذلك انظر:

– بيرين، تاريخ أوروبا، ص 112، انظر أيضًا: إدوارد بروى، القرون الوسطى، ج3، ص 402.

(1) بيرين، تاريخ أوروبا، ص 113.

(2) Cave, Coulsoo, A Source Book, P.145.

obeikandi.com

فى مواطنى لوبيك وذلك بسبب الاتفاق المبرم بيننا، ولذلك فإنه من أجل هذا الاتفاق الموقع بيننا وبين مواطنى لوبيك والذى لا يجوز تغيره نمنح هذه الوثيقة مكتوبة لأصدقائنا فى لوبيك مختومة بختمنا ومصدق عليها بالشكل الملائم، صدرت فى هامبورج فى الثلاثين من أبريل عام 653هـ / 1255م فى يوم عيد سانت جورج St. George[1].

وهكذا نرى أن مدن العصبة كانت تسعى دائمًا من أجل تطوير النظم والمعاملات المالية بما يتلاءم مع تطور وازدهار تجارتهم حتى أنهم اتفقوا على توحيد العملة وعدم قيام أى منهم بسك عملة جديدة دون موافقة الطرف الآخر، وذلك حتى يتخلصوا من الفوضى الدائرة فى التعامل النقدى آنذاك، ذلك أن بعض الملوك الصغار عندما وجدوا أن العملات الخاصة بهم غير متداولة، ولا تحوز الثقة، لم يترددوا فى سك عملة ليس لها قيمة مالية "مزيفة" وقاموا بختمها بخاتم الرابطة، وقد تعددت الشكاوى من ذلك كثيرًا دون فائدة[2].

لذلك فإنه من الخطأ تماماً أن نعتقد أن رأس المال كان غير فاعل أو أنه كان محفوظًا فى صندوق قوى أو فى مخزن قديم، وخير دليل على ذلك هؤلاء الأثرياء الذين جمعوا الأموال الطائلة والتى تظهر فى الوصايا وفى دفاتر المحاسبة القديمة، فثروات ربع مليون فرد لم تكن مجهولة، فتاجر واحد لم يكن يمتلك فقط العديد من المزارع فى أنحاء متفرقة من البلاد بل كان يملك قرى وأحياء بأكملها، وبالنسبة للرجال فإننا نجدهم فى كل جزء من أجزاء القارة يعملون كصناع كما يعملون تجارًا، ومن ثم فالألمان على سبيل المثال كانوا على ما يبدو هم أفضل صناع الأحذية "إسكافيين" لقد تجاوزت سمعتهم فى هذا الصدد مدينة ليشبون Lisbon[3]، ثم بعد ذلك اشتهروا كخبازين ولم يكن بمقدور أحد أن يعلم جيدًا كيفية تمليح وحفظ أسماك الرنجة وأسماك القد التى كان يقيمون بها[4]

(1) Sartorius, Urkundiche Geschichte des Ursprunges Der Deutschen Hanse, Vol. II, A.D. 1255, P.71.
(2) Zimmern, The Hansa Towns, P.104.
(3) ليشبون Lisbon: عاصمة وميناء رئيسي وأكبر مدينة في البرتغال وهي مركز ليشبون، تقع على الضفة اليمنى لنهر Tagus على مرتفعات تحيط بالحوض الشرقي المعروف بـ Marde de Palha وهذا إشارة إلى لون النهر. عن ذلك انظر:
- The New Encyclopedia, Vol. VI, P.256.
(4) Zimmern, The Hansa Towns, PP.104 – 105.

وقد ظهرت الشركات الكبرى فى التجارة الأوروبية بصفة عامة والإيطالية بصفة خاصة، على أنه كان هناك فرق بين الشمال والجنوب، فكانت القيمة التجارية فى الشمال قليلة مقارنة بالجنوب، وكانت أسعار المنتجات الرئيسية فى المنطقة رخيصة نسبيًا باستثناء الجلود، وكان بها سلع كثيرة جداً، وهذه العوامل توضح لنا إلى حد كبير الاختلاف الكبير بين التجارة الهانزية والتجارة الإيطالية، فليس من قبيل المفاجأة أن تكون الطرق التجارية أقل تقدمًا فى منطقة البلطيق وأن يكون التاجر – أو وكلائه – مجبرين على أن يكونوا دائمًا على الطريق[1].

لم تكن الشركات الكبرى ذات الفروع المتعددة تماثل التى فى باردى Bardi، أو فى ميدش Medici معروفة فى المنطقة الهانزية، فقد ظل التاجر الذى يعمل فى التجارة بمفرده هو النمط السائد فى تلك البقعة، ولنزيد الأمر تأكيدًا كان هناك شركاء لكن كانت مشاركتهم مؤقتة قد تزيد أو تنقص حيث يقوم تاجرين أو ثلاثة بالتجمع معا من أجل غرض محدد ومحدود، وقد شكلت بعض هذه العقود مشاركات مؤقتة لمشروع فردى فقط، لكن كانت هناك عقود أخرى تستمر لمدة أطول من الممكن أن تستمر لمدة عام وما يزيد عن عام، وجميع هذه العقود كانت لها صفة مشتركة حيث كانت ملائمة جدًا للصبغة الاستعمارية للتجارة الهانزية[2].

ومن بين المشاركات النموذجية شركات سنديف Sendeve، Wederlegginge أوسودتياس فيرا Sodetas Vera والأولى تتشابه شيئًا ما مع كومندا Commenda[3] لكنها

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.106.
– كان يتم تحديد رسوم تدفع على السلع فى شمال أوروبا، عن مقدار هذه الرسوم التى كانت تدفع هناك فيما بين عامى 1310 – 1340م خاصة فيما يتعلق بالأقمشة الصوفية فى بروج والفلاندرز ككل والتى كانت البرجوازية فى بروج تتحرر من دفعهما، انظر:
- Adelson, Medieval Commerce, PP.177 – 178.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.106.
(3) الكومندا Commenda: هى شركة التوصية المساهمة، وقد أطلق البنادقة اسم Collegantia بمعنى زمالة، أى أن هناك صاحب رأس المال الذى يسمى Commendator والعميل الذى يشارك بمجهوده ويسمى Tractator وجميع هذه التسميات تعنى أن هناك مجموعة من الأفراد، اتفقوا على أن يشتركوا بالقيام بعملية تجارية كبيرة، وهذه العملية لم تكن لمدة كبيرة أو لأعوام، ولكنها كانت لرحلة واحدة ولمدة قصيرة، ومرتبطة بالتجارة البحرية، ولو أنهم استخدموها فى التجارة البرية، وقد ارتبط هذا النظام أساسًا برحلات قوافل المدة Mudah إلى مصر والشام. انظر: =

لم تكن مثلها من جميع النواحى، فربما كانت أقرب إلى كونها عقد وكالة، حيث أنها اشتملت على شراء أو بيع مخزون بضاعة عن طريق موظف أو تاجر أو صاحب نزل، وفقاً لتعليمات (توصيات) الرئيس الذى يتحمل جميع مخاطر المشروع، ولم يكن هناك ثمة فرق سواء سافر الوكيل بالبضاعة أو تم شحنها بدون مرافقتها[1].

كان من حق الوكيل أن يحصل على عمولة (سمسرة) أو أجرة ثابتة، لكن على ما يبدو أنه لم يشارك فى الربح أو الخسارة، وفى القرن الخامس عشر الميلادى، حدث مرارًا أن حصل العميل على عمولة من عدد من الرؤساء، ولقد كان يعد عقد Wederlegginge، فى أعالى ألمانيا، مثل سنديف Sendeve، بأنه عقد محدود خاص بمشروع واحد، وعادة ما كان يشتمل على شريكين، أحدهما يقدم الدعم المادى والآخر يقوم بالعمل التجارى والذى كان عادة يسافر فى رحلة خارجية، ومع ذلك فهناك أمثلة لأموال مستثمرة بمبالغ متساوية وغير متساوية فالشريك الذى يدير عملية التجارة عادة ما يتعامل باسمه الخاص دون الإشارة إلى اسم شريكه، وفيما يتعلق بتقسيم الأرباح فلم تكن هناك قوانين ثابتة على ما يبدو لهذا الأمر كما كان فى جنوة Genoa[2].

هكذا كان يتم إدارة العملية التجارية فى تلك العصور وفقا للاتفاق الخاص بالشراكة فيما بين التاجر المسافر والآخر المقيم متضمنة نسبة الأرباح.

وفى القرن السادس عشر الميلادى، نص قانون لوبيك على أن الشركاء الذين يتولون إدارة العمل التجارى بدون استثمار يجب أن يتقاسموا فى الربح فقط دون الخسارة.

لكن لا يحق لهم المطالبة بأى مكافأة نظير المتاعب التى واجهوها وقد صدر هذا القانون مؤخرًا، ففى ألمانيا الجنوبية، كانت فيدرلجينج Wederlegginge معروفة أيضًا لكن باسم فورلجينج Furlegung.

وإلى حد بعيد فإن النظام المتبع فى التجارة الهانزية لم يكن سنديف ولا فيدرلجينج لكن ما كان يسمى بـ جيجنستيج فيرنجسيلخافت Gegenseitige Ferngesellshaft أو شراكة

= – عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ص 159 – 160.

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.106 – 107.

(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.107.

الوكالة المتبادلة، حيث كان ذلك يعد اتفاقًا غير رسمى والذى بموجبه يتفق شريكان فى مكان ما مع شريك فى مكان آخر – على سبيل المثال أحدهما فى لوبيك Lübeck والأخر فى ريجا على أن يقوم كل منهما بالعمل كوكيل للآخر وأن يقوم ببيع البضاعة مقابل ربح معلوم.

ومثل هذا الاتفاق لم يكن بالضرورة اتفاقًا مؤقتًا، بل من الممكن أن يمتد على مدار أعوام، ولقد كان هذا الاتفاق يعد ملائما لاحتياجات التجارة الهانزية[1].

وهكذا كان يتم تغيير عقود الشراكة وفقا لمقتضيات الظروف إذ أن بعضها كانت اتفاقات مؤقتة والبعض الآخر من الممكن أن يمتد على مدار أعوام طويلة وفقًا لمصلحة الشركاء.

ولم يكن للـ Ferngesellschaft رأس مال ولم يكن لها أسلوب تتميز به، وقد ظل الاتفاق طى الكتمان عن الأجانب، حيث أن كل وكيل يزاول التجارة باسمه، كما لم يكن هناك ما يسمى بالقيد المركزى (مسك الدفاتر أو المحاسبة) فكلا الطرفين يقوم بمسك سجلاته وفقًا لنظامه الخاص به، ولقد أدى هذا العمل إلى نشوب العديد من الخلافات على الحسابات، وأيضًا فلم يكن لأى طرف من سلطان على الطرف الآخر كما أن بعد المسافة بينها حال دون حدوث مشاورات بينهم، فلم يكن هناك وسيلة للتحكم ومن ثم فإن الاتفاق قد يمتد إلى فترة طويلة وهذا يتوقف على الثقة والتكامل التجارى بين الطرفين، لقد كانت هذه العوائق عوائق خطيرة ومن ثم فإنها أصبحت مصدرًا من مصادر النزاع، خاصة أن تجار الهانزا كانت لديهم عادة سيئة وهى أنهم أهملوا تسوية الحسابات فى وقتها، ونتيجة لطريقتهم البدائية فى مسك الدفاتر (المحاسبة) فقد حدثت تناقضات وأخطاء أدت إلى الخلاف الكبير فيما بينهم[2].

كان من الممكن تأمين التمثيل التجارى على المستوى الخارجى عن طريق إرسال وسطاء تجاريين أو عن طريق الاستعانة بوكلاء يحصلون على عمولة، فقد كان هناك نوع مشهور أيضًا يتمثل فى الوكالة التبادلية دون تقاسم فى الربح كما فى حالة Ferngesellscheft، كما أن هناك بعض

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.107.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.107.
– من ذلك تلك الحادثة التى وقعت ما بين عام 1507 – 1523م، بين تاجرين أحدهما يسكن فى ريفال Reval والآخر فى لوبيك Lübeck، فقد حدث أنهما لم يقوما بتسوية الحساب على مدار ستة عشر عامًا. عن ذلك انظر:
- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.107.

التجار كانوا يستعينون بوسطاء مقيمين "أو ليجر Lieger" ومن أبرز من استخدم الليجر كان الممثل الدائم لنظام التيوتون فى بروج، أما بالنسبة للتجار الذين ليس لديهم علاقات جيدة فى الأماكن الأخرى فقد كان لزاماً عليهم أن يذهبوا إلى الخارج بأنفسهم حيث لم تكن العادة تجرى بطلب بضائع عن طريق المراسلة أو شراء سلع دون أن يتم معاينتها مسبقًا.

ساد استخدام مصطلحات بين التجار مثل Bergenfahrer، أو Flandernfahrer أو Englandfahrer، والتى تطلق على التجار الذين يتاجرون مع بيرجن أو الفلاندرز أو انجلترا، ولأن مقطع Fahrer، بالألمانية يعنى "مسافر" فإنه من الواضح أن هؤلاء التجار كان يطلق عليهم هذه المسميات لأنهم كانوا يسافرون إلى تلك الأماكن، ويؤكد مؤرخوا الهانزا على حقيقة أن التجارة الهانزية أصبحت أكثر استقرارًا أثناء القرنين الرابع والخامس عشر الميلاديين، وذلك بسبب نمو التجارة عن طريق المراسلات، ومن ثم فإنه أصبح بمقدور هؤلاء التجار إدارة شئونهم من مكاتبهم، ومما لا شك فيه أن هذا الاتجاه كان موجودًا لكن الإيطاليين طبقوه أكثر من غيرهم[1].

يتضح لنا مما سبق أن تجار الهانزا سعوا إلى خدمة عملياتهم التجارية بما قاموا به من تطوير للنظم والمعاملات المالية، إذ سعوا إلى إيجاد عملة متحدة قوية للتعامل فيما بينهم واستفادوا كذلك من عودة استخدام العملة الذهبية فى الغرب الأوروبى كما سعوا كذلك للحد من الضرائب عن طريق

(1) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.108.

- قد تطور نظام الشراكة عند الايطاليين تطورًا كبيرًا منذ تجارتهم مع الشرق زمن الحروب الصليبية، مثلما حدث مع البنادقة فقد تطورت من الشركات الأخوية Fiaterna Compania – وذلك لأن البنادقة شعروا بالحاجة الماسة إلى الاتحاد فيما بينهم – ثم تطور نظام الشركة الذى كان بين مجموعة من الأقرباء ليشمل مجموعة من الغرباء تكونت بينهم شركة مساهمة سميت باسم Commenda ثم تطور إلى نظام شركات التوصية المساهمة الذى تطور بعض الشيء وأصبح يسمى فيما بعد باسم Societas Marins.عن ذلك انظر:
- عفاف صبرة، العلاقات بين الشرق والغرب، ص ص 158 – 163.
- عن نظام مسك الدفاتر أو المحاسبة Book – Keeping الهانزية والمقارنة بين الإيطاليين والهانزيين فى أسلوب الإقامة هناك. انظر:

- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.108-110.

ما حصلوا عليه من امتيازات إلى جانب استخدامهم للإقراض والأعمال المصرفية والشراكة التجارية والتى أسهمت فى ازدهار التجارة الهانزية ازدهارًا كبيرًا[1].

3 – امتلاك اتحاد الهانزا لقوات عسكرية خاصة برية وبحرية ونتائجه:

رأينا كيف تمكنت العصبة الهانزية من النجاح فى التوسع وتحقيق نفوذ سياسى لها، خاصة أن الأهداف الأساسية لها كانت تتلخص فى حماية تجارها من الأعداء من جهة والمنافسين من جهة أخرى، بالإضافة إلى التوسع فى الحصول على مزيد من الامتيازات، ولتحقيق هذه الأهداف أنشأت العصبة الهانزية قوة بحرية ضخمة وجيشًا بريًا وبحريًا، حتى غدا كبار ملوك أوروبا يخشون بأسها وينشدون محالفتها[2]. الأمر الذى مكنها ليس من رعاية مصالحها فحسب، وإنما من النهوض بمستوى الحضارة فى شمال أوروبا أيضًا[3].

قامت المدن التجارية الأعضاء فى العصبة بدفع ضرائب منتظمة للإنفاق على جيشها وأسطولها[4]، إذ من خلالها تم توفير تكاليف الحرب والحصول على الأسلحة وقد كان بمثابة فرض واجب سمى بالجنيه وكانت التعليمات صريحة بخصوص ذلك[5]، فيما يتعلق بجمع جنيه من المال، وهى الأموال اللازمة للحرب ولتغطية نفقاتها كذلك، مثلما تم فى عام 764 هـ/ 1362م عندما تم

(1) يشهد على هذا الازهار التجارى أمثلة عديدة لثروات سكان الهانزا أمثال جوهان ويتنبورج Johann Wittenborg الذى سير تجارته إلى الفلاندرز وانجلترا وسكانيا وبروسيا وليفونيا= =وروسيا، وأيضا هنرى كاستروب Hinrich Castrop والذى أدت ثروته الحاصلة عن التجارة إلى الاستثمار فى الأعمال البنكية (الاقراض)، وأيضًا Johann Bussman والذى جمع ثروة بلغت أربعين ألف مارك لوبيكى فى أوائل القرن السادس عشر، و Henning Buring والذى ترك ضيعة تقدر بستة وأربعين ألف مارك فى عام 1499م، وتيدمان ليمبرج Tidemann Limberg 1310 – 1386م والذى كانت ثروته كافية ليصبح دائنًا ومفضلا لإدوارد الثالث، فى الوقت الذى كان فيه تجار أثرياء آخرين فى القرون الوسطى. عن ذلك انظر:

- Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.43.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص 597 – 599؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 148.

(3) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 599.

(4) نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 148.

(5) Kiesselbach, Die Wirtscha Ftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, P.261.

فرضها على الصادرات التجارية للهانزية، وذلك بقرارات ملزمة لجميع المدن[1]، وبذا أصبح لاتحاد الهانزا جيوشه المنظمة، وقواته البحرية المجهزة والمزودة بالأسلحة، والتى تمارس جميع صلاحيات السيادة، وقد تمكنت ألمانيا من السيطرة على البحر طوال العصور الوسطى[2]. وتم لها تنظيم الجنود والإدارات بشكل مثير للإعجاب وأصبح لها إدارات عسكرية وبحرية خاضعة لإشراف لوبيك[3].

وعلى الرغم من هذا الاستعداد الحربى للعصبة الهانزية إلا أن الحرب لم تكن هى موطن قوة الهانزا، إذ أنها قلما كانت تجدى، فمنذ البداية تعلمت جماعات الهانزا أن تدافع عن مصالحها التجارية من خلال فرض العقوبات التجارية، وقد حققت نجاحًا كبيرًا فى هذا الصدد، عن طريق فرض الحظر التجارى على التجار المخالفين، ويعد نجاحهم الباهر على التجار النرويجيين فى أواخر القرن الثالث عشر أفضل مثال على فاعلية هذا التكتيك[4]، على أننا نستطيع أن نؤكد على أن الحظر والحصار التجارى كان فى حاجة إلى مثل هذه القوة العسكرية من أجل إنجازه وتحقيقه على الوجه الأمثل، إذ أن النرويجيين قاموا بمواجهة هذا الخطر بقيامهم بمهاجمة السفن الألمانية مما أدى إلى فتح باب الصراع على مصراعيه، حتى أن الأمر تطور فى عام 683هـ/ 1284م، إلى حرب بحرية[5]، ومن هنا أثبتت القوة العسكرية الهانزية فاعليتها فى مثل هذا الموقف وبخاصة القوة البحرية، إذ أنها قامت بفرض الحصار عن طريق منع الصادرات إلى النرويج، وتم حجز السفن فى مضيق

(1) Daenell, Die Blutezeit Der Deutschen Hanse, Vol I, P.40.

- لعل هذا النظام يشبه ما كان متبعًا فى انجلترا من نظام البدلية، والتى تعنى الإعفاء من الخدمة العسكرية فى شكل مال مدفوع وكانت تحصل من كل حارس إقطاع، مثلما حدث فى عهد الملك هنرى Henry فى عام 554هـ/1159م، عندما أخذ البدلية من كل انجلترا وكان المبلغ الاجماعى مائة وثمانون ألف جنيها من الفضة. عن ذلك انظر:
  - Stubbs, Select Charters of English, A.D. 1159, P.152.
- كما تم جمعها كذلك فى السنة السادسة من حكم الملك ريتشارد Richard بقيمة عشرون شلنًا. عن ذلك انظر:
  - The Red Book of the Exchequer, Hubert Hall, Ed. (H.M.) Stat. off, 1896, A.D. 1195, PP.79 , 83.

(2) Myers, Mediaeval and Modern History, P.156.
(3) Keppen, The World in the middle ages, Vol. II, PP.482 – 483.
(4) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.15.
(5) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.387.

الدانمارك لضمان استجابتها للأسطول الهانزى[1]، وأمام هذا الحظر وخاصة مع قطع إمدادات الحبوب إلى النرويج عن طريق إغلاق المضيق، لم يكن أمام النرويجيين إلا وقف القتال والاعتراف بالامتيازات التجارية التى يتمتع بها التجار الأجانب من قبل وذلك فى عام 684هـ / 1285م، حتى وإن كان النرويجيون قد تمكنوا فى البداية من أسر عدد من السفن الألمانية، إلا أنهم تكبدوا خسائر فادحة فى النهاية واضطروا للتسليم[2]. وهو ما يجعلنا ندرك أهمية القوة العسكرية الهانزية فى تحقيق أهدافها التجارية بصورة احتكارية، خاصة فيما يتعلق بالأساطيل البحرية، إذ أن الهانزا قامت بإبداعات تكنولوجية فى هذا المقام، ففى البداية قام الاسكدنافيون بالعمل فى التجارة البلطيقية بسفنهم الطويلة ومراكبهم المناسبة لنقل الأفراد، وفى قرابة عام 648هـ/ 1250م قام أعضاء الهانزا بتغيير هذا الشكل الذى عفى عليه الزمن من وسائل النقل بالكوج Kogge، الأكثر نفعًا، ويشبه فى بعض مناحية سفن الفيكنج الطويلة، إذ أن الكوج له جسم متراكب، وسارية مفردة وشراع مربع، ولكن الأهم من ذلك هو الفرق بينهما، فالكوج أنسب للتجارة البحرية حيث يحتوى على شاحنة كبيرة أسفل الظهر، والسفينة مستقيمة، ودفة قيادتها معلقة، ويرجع تاريخ الكوج الهانزى Hanseatic Cog، إلى عام 782هـ/ 1380م فقد تم اكتشافه فى مرفأ بريمن، فى عام 1382هـ/ 1962م، ويبلغ طوله سبعين قدمًا واتساعه واحد وعشرين قدمًا وتقدر سعته بنحو مائة وثلاثون طنًا[3]. ويظهر أهمية هذا التطور عندما ندرك أن السفن التجارية هى نفسها التى كانت تستخدم فى الحروب.

أما فيما يتعلق بقوة الهانزا، فإنهم دائما ما كانوا يميلون إلى الغموض عند الحديث عن

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.16.
(2) Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, PP.387 – 388.
(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.32.

- قد كان البنادقة والبيزنطيون يفضلون استخدام السفن ذات المجاديف كذلك، لأنها كانت سريعة، وتشق طريقها فى هدوء وثبات، إلا أنه كان من الصعب السيطرة عليها فى أعالى البحار، كما كانت تحتاج إلى عدد كبير من البحارة ربما بلغ عددهم أكثر من مائتى بحار، وفى القرن الرابع عشر للميلاد ظهر طراز جديد يجمع بين الأشرعة والمجاديف، وتم استخدامه فى السفن الحربية. عن ذلك انظر:
- بيشوب، تاريخ أوروبا، ص ص 212 – 213.

أنفسهم، فعندما كان يطرح سؤال ما هى المدن الهانزية؟ على سفراء الهانزا كانوا دائما يراوغون فى الإجابة فمرة يكون الجواب بأنها : المدن التى خاضت المعارك الهانزية، أو أنه يتم ذكر عدد قليل من المدن ويتم ختم القائمة بعدد هائل من قولهم إلخ إلخ، ولقد كان كبار مواطنى العصور الوسطى يضعون نصب أعينهم المصالح العامة للتجار الألمان، والتى كانوا يخشون عليها من أن يحيق بها ضرر بسبب انتشارها، ومن ثم فإنهم أصبحوا قوة لا يمكن أن تغيب عن العيان ومن العجيب أنهم لم يستفيدوا من هذه الفرصة لتحقيق الاستقلال السياسى بل الأدهى من ذلك والأعجب أن الهانزيين، كانوا على علم تام بكيفية استخلاص الفائدة مبتعدين عن النزاعات والاضطرابات التى تعصف بأوروبا[1]، ولعل هذا هو ما أعطى لهم هذه المكانة والسيطرة الاقتصادية فى تلك العصور خاصة وأنهم كانوا دائمًا ما يميلون إلى الاتحاد وعدم النزاع فيما بينهم، كما كانوا يتبعون قوانينهم ولا يخرجون عليها، وإلا تعرضوا لعقوبة الحرمان.

ولقد ظلت مقاليد القوة والسيادة تتأرجح مع الهانزا وعلى مدار أقل من مائة عام حتى بزغ نجم ساحل البلطيق في مساحة مائتين وخمسين ميلا متألفا مما لا يقل عن أربعة عشرة مدينة من مدن الدرجة الأولى فى الأهمية ولا نعرف اسما واحدًا من أسماء هذه المدن، ومن ثم فإن التجار سيطروا على منابع جميع أنهار البلطيق العظمى وأنشأوا عليها كلها موانىء ومستودعات، كما ظهرت فى ألمانيا فى هذه الحقبة قوة استعمارية، أعادت نجاحاتها إلى الأذهان تلك الأزمان الناصعة للتوسع اليونانى فى حوض البحر المتوسط[2].

وليس من شك فى أن هذه الرغبة الاستعمارية للألمان كانت تتطلب قوة عسكرية إلى جانب أقوام أقوياء ومحاربين حتى يتمكنوا من تحقيق أهدافهم الاستعمارية، على أن من قاموا بقيادة هذه القوات العسكرية هم التجار الألمان أنفسهم على نفس سفنهم التجارية الصالحة للقتال.

وهناك وجهة نظر معاصرة وجيهة عن هؤلاء التجار والتى لا تزال موجودة حتى الآن وهى مستوحاة من قلم الرحالة الإيطالى، مارينو سانودو Marino Sanudo[3]، الذى اتجه فى رحلاته

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.87 – 89.
(2) Zimmern, The Hansa Towns, P.89.
(3) مارينو سانودو Marino Sanudo: هو بندقي الأصل قد احتل مكانة هامة بين دعاة الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى، ونظرًا لأصلة البندقى ظهر فى مشروعة أهمية العامل التجارى فى الحركة =

مغامراً إلى أقصى شمال البلطيق، وقدم تقريرًا للبابا حنا الثانى والعشرون Pope Johan XXII (716 – 735هـ / 1316 – 1334م) [1]. جاء فيه "يعيش فى ألمانيا أناس كثيرون يمكن تحقيق استفادة كبيرة منهم، فقد رأيت بعينى رأسي بأن شواطىء ألمانيا شواطىء شبيهة بشواطىء البندقية، وسكانها أقوياء الأطراف ويعملون فى الجندية وأغلبهم من المحاربين، وبعضهم لديه مهارة فائقة فى حفر الخنادق، كما أنهم أغنياء وأفضل صفاتهم أنهم أظهروا حماسة قوية لاستعادة الأراضى المقدسة"[2].

وهكذا يتضح لنا من وصف تلك الرحلة أن الألمان كانوا أقوامًا محاربين ويمتازون بالقوة والمهارة ولعل ذلك مكنهم من التوسع والمساهمة فى نشر المسيحية وفى حركة التنصير.

غير أن الحرب لم تكن موطن قوة الهانزا، فعند عدم وجود آلية مركزية للتمويل وعدم وجود خزانة، لم يكن هناك أموال أو مرافق للحفاظ على الوحدات العسكرية القائمة.

فنفقات الدخول فى الحرب كانت تمول تلقائياً من خلال ضريبة بفاندزول Pfundzoll[3]، إذا استدعت الحاجة. أما الأساطيل البحرية فقد كانت تتألف من السفن

= الصليبية، ويبدو من تاريخ حياة سانودو أنه طاف بكثير من البلدان، فضلا عن معرفته باللغتين اليونانية واللاتينية، وقد استطاع أن يقوم فيما بين سنتى 1306، 1321 م بعمل كتاب عن أحوال الأرض المقدسة، حدد فيه الخطوات الثلاث اللازمة للقيام بحملة صليبية ناجحة، عن ذلك انظر:

– سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج2، ص 947، عنه أيضا انظر:

- Zimmern, The Hansa Towns, P.90.

(1) البابا حنا الثانى والعشرون: تولى خلفا للبابا كلمنت الخامس عام 1366م، فستأنف سياسة كلمنت الخامس مؤكدًا حقوق البابوية، فقد انتهز البابا الخلاف بين لودويج الرابع وفردريك هابسبورج على عرش ألمانيا، ليظهر سيادة البابوية، على أن لودويج عندما دخل روما فى يناير 1328م وتوج إمبراطورا فقام البابا حنا بإصدار قرار الحرمان ضد الإمبراطور وأعوانه فرد الأخيرون على البابا باتهامه بالهرطقة وإعلان عدم شرعية انتخابه، ثم اختار الإمبراطور أحد الإخوان الفرنسيسكان من أعوانه ليتولى منصب البابوية تحت اسم نيقولا الخامس، عن ذلك انظر:

– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص ص 587 – 589.

(2) Zimmern, The Hansa Towns, P.90.

(3) بفاندزول Pfundzoll: هى ضريبة كانت تحصلها المدن على التجارة البحرية والتى تنفق على تحسين المدن والخدمات العامة أو تمويل حروب الهانزا. =

التجارية الصالحة للحرب وبلا شك كان جنودها البحارة التجاريين وقد نشأ القادة العسكريون من صفوف القادة المدنيين "وهم التجار بشكل عام"، غير أن الأساطيل البحرية الهانزية لم تسجل نجاحات كبيرة[1].

ويظهر تاريخ المعارك المستمرة بين الهانزا والدانمارك تفوقها الكبير فى الحرب.

ومع ذلك فعندما تم مواجهة الملك فالديمار الرابع Waldemar IV (1340 – 1375م) هزم الأسطول الهانزى المكون من اثنين وخمسين سفينة تحت قيادة جوهان ويتنبورج Johann Wittenborg، رئيس لوبيك Lubeck، فى عام 764هـ/ 1362م، فى مضيق الدانمارك[2]، ويرجع ذلك إلى أن ملوك الشمال لم يفوا بعهدهم وأحجموا عن المشاركة بجنودهم،

= كان من مظاهر الاستبداد الاقتصادى الذى اتبعه الفرسان التيوتون استئثارهم بالحق فى جمع دخول المدن Pfundzoll أى الأموال التى تحصلها مجالس المدن البروسية من الممارسات التجارية على التجار، وكان من المفترض أن تنفق تلك الأموال على تحسين المدن والخدمات العامة. عن ذلك انظر:

- محمد السيد صديق، منظمة الفرسان التيوتون، ص 208، حاشية (1).
- يذكر بوستان Poston بيانات عن الضريبة النسبية Pfundzoll عن المتوسط السنوى المقترح للتجارة البحرية الوليدة عام 1370م من وإلى موانىء الهانزا والتى تقدر بنحو ثلاثة ملايين مارك لوبيك أو ما يعادل ستمائة ألف جنيها استرلينى فى الوقت الحالى، وفيما يتعلق بفترة الخمسين عاما والتى بدأت فى عام 1390م فإن سجلات دولينجر Dollinger التاريخية لصادرات الهانزا عن طريق منظمة التيوتون إلى الفلاندرز من الكهرمان والنحاس والشموع والفراء وغيرها من السلع القيمة تقدر بنحو 31.419 جنيها فلمنكى جروستش Groschen والواردات من الملابس والبهارات تقدر بنحو 50.776 جنيها، عن ذلك انظر:

- Quesenbery, The Institutional Success of the German Hanse, PP.41 – 42.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.52.
(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.52.

- عن هزيمة الأسطول الهانزى فى عام 764 هـ / 1362م بعد حصار حصن هلسينجبورج Helsingbors.انظر:

- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, PP.261 – 262.

- ولقد فاجأت الهانزا هذه الهزيمة، لأن أسطولها قبل ذلك بقليل فى مايو 1362م كان قد نجح فى الانتصار على الدانمارك وتدمير كوبنهاجن Copenhagen وسلبها وحمل أجراس كنيستها إلى لوبيك كغنيمة. عن ذلك انظر: =

فلم يجد ويتنبورج حلا إلا استخدام رجاله الذين معه على السفن فى الهجوم البرى، إلا أن هذا القرار الذى اتخذه مضطرًا لم يكن صائبًا فقد تشتت القوات الألمانية مما مكن فالديمار من هزيمتهم بسهولة وذلك عندما فاجأ سفن الهانزا[1].

بيد أنه بمساعدة الحلفاء السياسيين وبالتمويل الكبير للأسطول سرعان ما انتصرت الهانزا وحازت الامتيازات فى سلام شترالسوند Stralsund عام 772هـ/ 1370م، ولكن قائد أسطولهم الأول جوهان ويتنبورج، دفع حياته ثمناً لهزيمته[2]، فعند عودته إلى لوبيك، رأوا معاقبته رغم أنهم يدركون أن السبب الرئيسى فى هذه النهاية الكارثية للحرب يرجع إلى خيانة ملوك الشمال، ومع ذلك أصدروا حكمًا جائرًا على القائد المهزوم وتم القبض عليه وطرحه أرضًا ووضعه فى الأغلال ثم إلقائه فى سجن محصن تحت الأرض وهناك قضى سنة كاملة فى معانة وحاولت بعض المدن فداءه، دون فائدة، وقد حاول زملاؤه عبثًا أن يتسلموه إلا أن لوبيك كانت مدينة صلبة لا تعرف الرحمة ولا تعفو عن الفاشلين وبالطبع فإن ويتنبورج تم تجريده من الأوسمة الرئاسية وبعد عام من الهزيمة التى لحقت به قطعت رأسه على الملأ علناً تحت مقصلة السياف فى سوق لوبيك، ورفض دفنه فى كنيسة الأعضاء حيث دفن فى دير الدومينيكان Dominicans[3]، وهى البقعة التى يدفن فيها المجرمون فى لوبيك فى العصور الوسطى، والمنفذ فى حقهم حكم الإعدام من قبل الرهبان، كما أنه تم حذف اسم ويتنبورج من سجل القادة العسكريين[4].

= - Zimmern, The Hansa Towns, P.57.
- Colvin, The Germans in England, P.36.
- Kiesselbach, Die Wirtscha Ftlichen, PP.269 - 270

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.57 – 58.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.52.

(3) أديرة الدومنيكان:ترجع أديرة الدومنيكان إلى سانت دومنيك وهو أسبانى الأصل، الذى أنشأ منظمات الإخوان الفقراء فى جنوب فرنسا وقد حاول أن يقنع الهراطقة فى جنوب فرنسا وشمال إسبانيا بالعودة إلى = = داخل الكنيسة الغربية، وذلك عن طريق الوعظ والدعوة، لذلك اتبع مع أتباعه أسلوب الفقر المطلق، فاستقر جماعة منهم فى تولوز عام 1216م واعترف البابا هونريوس الثالث بهيئته بعد قليل، ولكن لم تلبث هيئات الإخوان الرهبان وبخاصة الدومينيكان أن ازدادوا نفوذاً، وتكاثرت مؤسساتها وتخلت عن مبادئها الأولى فى الفقر والتقشف.عن ذلك انظر:

– سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج2، ص ص 44 – 45.

(4) Zimmern, The Hansa Towns, PP.58 – 59.

– هناك ثلاثة قادة شاركوا فى الحرب الهانزية ضد الدانمارك، ولكنهم هزموا فتعرضوا للعقاب من جانب =

أما المعركة الثانية الكبرى مع الدانمارك والتى دارت رحاها فى عام 829هـ / 1425م كان الأسطول الهانزى تحت قيادة تيدمان ستين Tideman Steen، رئيس لوبيك أيضًا، قد هزم في المضيق، إلا أن مصير هذا القائد لم يسجله لنا التاريخ غير أن دولينجر Dollinger، أشار إلى أن العديد من أعضاء مجالس المدن الوندية، قد تم قطع رؤوسهم بعد الهزيمة[1].

وهكذا كانت الحرب بين الهانزا والدانمارك سجالاً ولم تتنازل الهانزا عن حقوقها التجارية، كما لم تتسامح مع من يهزم من قادتها فى تلك الحروب، على أن ما حازته الهانزا من امتيازات فى معاهدة شترالسوند Stralsund فى 24 مايو 1370م، كان انتصارًا ساحقًا لها على الدانمارك بعد أن حاول ملكها فرض الضرائب على السفن الألمانية التى تبحر فى المياه الدانماركية، عندما نجح فى الاستيلاء على ويزبى، إلا أن الهانزا نجحت فى هزيمة القوات الدانماراكية البحرية واستردت امتيازاتها وأصبح لها صوت مسموح فى اختيار الملوك فى ذلك الركن الشمالى الغربى من أوروبا[2].

وهكذا نرى أن الدانمارك كانت السبب الرئيسى للمعارك العسكرية التى خاضتها الهانزا وقد كانت المواجهات معهم تأخذ شكل عمليات عسكرية بحرية على نطاق واسع حيث كانت تشتمل على أساطيل بحرية كبيرة، فالحرب القصيرة الوحيدة التى خاضتها الهانزا مع الإنجليز والتى امتدت من عام 875هـ / 1470م، إلى عام 879هـ/ 1474م، أخذ القتال فيها شكلا مختلفًا، فقد حدث الاشتباك أولا عن طريق القرصنة، ثم احتدم بعد ذلك خلافات حول العلاقات السياسية الحساسة

= لوبيك، التى لم تكن تتسامح فى ذلك، وهم: جوهان ويتنبورج Johann Wittenborg عام 1362م، وبرون ورينودورب Brun Worendorp، عام 1369م وتيدمان ستين Tideman Steen، عام 1427م، وكل من ثلاثتهم قد اضطروا إلى الاستسلام، وقد اختلفت نهاياتهم. عن ذلك انظر:

- Mantels, Beltrage Zur Lubisch Hansischen Geschichtee Ausgewalhte Historische Arbeiten, PP.179 – 180.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.53.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج 1، ص 597؛ نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص 148.

- Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, PP.270 – 271.
- Colvin, The Germans in England, P.36.

للهانزا مع فرنسا وانجلترا، وبعدها يوركشير Yorkishier[1]، ولانكستر Lancastarians[2]، حدث بعدها هجوم على السفن التجارية من قبل جميع الأطراف، وقد حققت الهانزا نجاحًا كبيرًا في البحر عن طريق استغلال قبطان سفينة قرصنة هانزي يدعى بول بينك Paul Beneke، والذى سلب العديد من السفن من بينها إحدى السفن التى كانت محملة بما يقدر قيمته بمبلغ ستين ألف جنيهًا، وهو مبلغ لا يصدق[3]. وهو نفس الأسلوب الذى اتبعته الهانزا، من قبل فى تعاملها مع النرويجيين وغيرهم، ألا وهو استخدام أسلوب القرصنة عن طريق استخدام بعض أتباعها فى مهاجمة السفن التجارية للدول التى تحاربها أو التى تفرض عليها الحظر التجارى، وقد استخدمته كأسلوب ضغط على هذه الدول ونجحت فيه إلى حد كبير.

وعلى الرغم من ذلك فإن الانتصارات البحرية الهانزية كانت قليلة جدًا، وفى نهاية الأمر تحقق النجاح الهانزي عن طريق التحالف السياسى ومن خلال المفاوضات المثمرة.

ولقد استغلت الهانزا الخلافات الإنجليزية وساعدوا إدوارد الرابع Edward IV[4] (866 – 888هـ / 1461 – 1483م)، فى استعادة عرشه وشاركوا فى حرب الوردتين War of the Roses[5]، ولقد كان للهانزا دورًا بارزًا فى نجاحه وإعادته إلى انجلترا على سفن دانزيج Danzig،

(1) يوركشير: تقع شمال إنجلترا.

(2) لانكستر: تقع غرب إنجلترا.

(3) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.59.

(4) إدوارد الرابع: هو إدوارد دوق يورك، وعندما قتل أبيه ريتشارد دوق يورك فى أثناء حربه مع الملكة مارجريت، تمسك بحق أبيه فى المطالبة بالعرش وقد أمده وارك Warwick الملقب بصانع الملك The King Maker ومدينة لندن London بالمساعدات فى المال والرجال حتى انتصر على أسرة لنكستر سنة 1461م، وأعلن نفسه ملكًا باسم إدوارد الرابع 1461 – 1483م على أن إدوارد الرابع لم ينعم بالهدوء والاستقرار لانقلاب صديقه وارك عليه وفراره إلى فرنسا، حيث تحالف مع مارجريت ولويس الحادى عشر = = ملك فرنسا ضد إدوارد الرابع، ونجح هذا الحلف فى إعادة هنرى السادس عام 1471م للمرة الثانية إلى عرشه، وفر إدوارد الرابع إلى دوق برجنديا فأمده بجيش استطاع بفضله أن يعود إلى انجلترا فى نفس العام ويقتل هنرى السادس ومعه صانع الملك وارك، ويحكم البلاد مدة اثنى عشر عاما فى سلام. عن ذلك انظر:
– نظير سعداوى، تاريخ انجلترا، ص ص 170 – 171.

(5) حرب الوردتين: هى حروب أهلية عرفت بحرب الوردتين حيث خاضها فرعان متنافسان على عرش انجلترا وينتميان أصلا إلى أسرة إدوارد الثالث وهما أسرة لنكستر صاحبة الوردة الحمراء، وفرع أسرة يورك صاحبة =

ومن خلال المفاوضات الناجحة تمكنوا من استعادة جميع حقوقهم التجارية فى معاهدة أوتريخت Uteecht فى عام 879هـ / 1474م، اعترافًا بما قدموه لملك انجلترا[1].

وقد كان للنظام التيوتونى Teutonic Order، دورًا فى الدفاع عن الهانزا، باعتباره العضو الأكبر والأقوى من الناحية السياسية، فقد كان الفرسان قادرون على توفير حماية قوية للهانزا، إلا أن القوة التى أظهروها كانت قوة سياسية أكثر منها عسكرية.

نجحت الهانزا فى الدفاع عن امتيازاتها التجارية على مدار قرون ووصلت إلى ذلك بأساليب ليست دبلوماسية ولا عسكرية وإنما عن طريق تعليق التجارة[2].

يتضح لنا مما سبق أنهم كانوا يمتلكون من القوات العسكرية الخاصة البرية والبحرية اللازمة للقتال، ولكنهم لم يكونوا متسرعين فى استخدامها، إذ قلما لجئوا إلى استخدامها إلا إذا تعرضت تجارتهم أو مكاسبهم التجارية للخطر مثلما حدث فى صراعهم مع فالديمار الرابع Waldemar IV، ملك الدانمارك، ومن هنا تظهر أهمية امتلاك هذه القوة حتى وإن تعرضوا لبعض الهزائم، إلا أنهم نجحوا فى استعادة جميع امتيازاتهم التجارية وإملاء شروطهم كذلك، كما ظهرت أهميتها فى احكامهم للحصار التجارى.

4 – الدور الدينى والحضارى لتجار الهانزا وذويهم:

وصف كارل جوستا فسون Carl Gustavson فى مناقشة واضحة جدًا للسبب التاريخى للقوى الاجتماعية بأنها "طاقات إنسانية من شأنها أن تولد فى الشخص الدوافع، وتجعله يندمج فى تظاهرة جماعية للقوة" ومن جانبه فإنه يعرف ستة أنواع عامة للقوى الاجتماعية، وهى القوة الاقتصادية، والدينية، والمؤسسية، والتقنية، والأيدلوجية، والعسكرية، ويناقش أيضًا أن جميع

= الوردة البيضاء، وانضم إلى كل من الفرعين أنصار من النبلاء وأتباعهم لا حبًا منهم فى نصرة فريق على آخر لينال العرش، وإنما لإشباع حاجة فى نفوسهم بإراقة دماء أعدائهم الشخصين. عن ذلك انظر:
– نظير سعداوى، تاريخ إنجلترا، ص 170.

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hanse, PP.53 – 54.
– عن بعض صور الامتيازات التي منحها إدوارد الرابع لبعض مدن الهانزا مقابل مساعدتهم إياه. انظر:
- The Hanse Towns, in: Colvin, The Germans in England, P.239.

(2) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hansa, P.54.

هذه القوى هى أساسية فى السببية التاريخية، وجميع هذه القوى ناتجة عن الظروف الطبيعية والاجتماعية والتى تدفع الناس نحو التعاون من أجل إنجاز الأهداف العامة، ومن ثم يمكن للجميع أن ينخرطوا فى العمل وبالتالى يحدث التغيير الفاعل.

يعرف جوستافسون القوى المؤسسية بأنها قوة مهمة فى السببية التاريخية، فيذكر أن المؤسسات تعمل على ربط وإيجاد أفكار وقيم للجماعات الاجتماعية ومن ثم فإنها تشجع على الإنسجام والتعاون بين أفراد هذه الجماعات، ولتحقيق هذه الغاية فإن المؤسسات تعمل على جعل المجتمع ثابتًا وتقوم بتقديم التنظيم والترتيب له وعند تأسيسها فإن المؤسسات تصبح كيانات وتسعى جاهدة إلى تحسين أوضاعها من خلال الحفاظ على الذات وزيادة شأنها.

وعلى ما يبدو أن جميع ملاحظاته صائبة، خاصة فيما يتعلق بأن القوى الاجتماعية لها دورها فى بناء المجتمع وقد نجحت الهانزا نجاحًا كبيرًا كجماعة أو كمجموعة[1]، لأنه باتحاد مدن الهانزا مع بعضها البعض نجحت فى التأثير على مجتمعها بل والتأثير كذلك على المجتمعات المحيطة بها وكان لها دور كبير فى بناء المجتمع وتطويره.

كانت النقابات قد تأسست لأغراض خيرية واجتماعية إلى جانب دورها الاقتصادى لذا فعندما كانت تحل بأحد أعضائها فاقة او مرض كان يعتمد على النقابة لمساعدته، وعندما يموت كانت تدفع مصاريف القداس الدينى، كما كان زملاؤه من أعضاء النقابة يشاركون فى مراسم الجنازة والعزاء[2]، فقد كان هؤلاء الزملاء على استعداد كامل لتقديم المساعدة والمؤازرة[3]. كما قامت النقابات بتزويد سكان المدن ببعض الوظائف الاجتماعية مثل تنظيم الأعياد الاجتماعية والاحتفالات الدينية، وتقديم المساعدة للأرامل والخدمات الخيرية لأعضائها[4].

(1) Quesenbery, The Institutional Success of the German Hanse, PP.28-29.
(2) Rowling, Everyday life, PP.64 – 65.
(3) Ganuvard, la France au moyen age, P.263.
- Duby, Mandrou, Histoire de la Civilization, P.183.
- شينى، تاريخ العالم الغربى، ص 152.
- كان ذلك متبعًا منذ نشأة النقابات فى أوروبا العصور الوسطى، وليس من شك فى أنه ظل سائدًا مع تطور النقابات وانتظامها فى اتحادات أكبر فيما يعرف بالهانزا.

(4) Singman, Daily Life, P.194.
- عن تقديم المساعدات للأعضاء انظر أيضًا:

التزم كل فرد بواجبات تجاه الآخر تتمثل فى الالتزامات الاجتماعية والدينية وبناء عليه، فإنهم كثيرًا ما يؤدون الصلاة نيابة عن الذين ليس بمقدورهم حضور القداس كالغائبين بسبب السفر، كما كانوا يقومون بإعداد جنائز مناسبة لأصدقائهم المعوزين، ويمرضونهم إذا مرضوا، ويساعدونهم إذا حلت بساحتهم الخطوب[1]، إلى جانب بناء المستشفيات والمدارس، وتقديم التأمين بصور مختلفة، وتقديم المعونة للفقراء من أعضائها والتبرع بالجهد والمال لبناء الكنائس الصغيرة والكبيرة[2].

ليس أدل على الثروة التى حازها التجار آنذاك من الشواهد لأشكال وإحصائيات، ويمكننا أن نجد مثل هذه الشواهد الثروة والرفاهية فى الآثار الباقية من هذا العصر كما توجد شواهد على ذلك في الكنائس. وفى العصور الوسطى فإن نقطة التقارب فى الحياة المثالية كانت متمثلة فى الكنيسة، فكل شىء يتجاوز الاحتياجات العملية العاجلة للحياة اليومية وكل شكل من أشكال الإحسان وكل سعى وراء الحضارة وكل مجهود فنى وعملى كان له فى هذه الفترات أسس دينية إلى جانب التوقعات لمخاطر محتملة من الممكن أن يتعرض لها تجار المدن فى البحر والبر[3]، ومن ثم نجد فى عام 804هـ/ 1401م قيام التجار ومستأجرى السفن فى لوبيك بتكوين اخوة ورابطة (نقابة مهنية) أبدية تبجيلاً للمسيح وأمه السيدة مريم، وجميع القديسين –وفقا لعقيدتهم–، فقد منحوها لمن اعتقدوا أنه يفوقهم جميعًا وهو سانت نيكولاس St. Nichalas، والذين يقدمون يد العون والمساعدة للأحياء والأموات وإلى جميع الذين يسعون إلى أن يعيشوا حياة قويمة فى البحر، وللأسف فإن الكثيرين يهلكوا من جراء تقلبات البحر فيلقى بهم من على سطح المركب أو يتم التخلص منهم بطرق أخرى، فيحتضر من غير اعتراف وبدون توبة، فهم فى ساعات الاحتضار لا يشعرون

- Duruy, Histoird de moyen age, P.354.
- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج2، ص ص 104 – 105.

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.117

(2) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص 180.
- فقد عنيت الهانزا بتشييد الكنائس الضخمة، عن ذلك انظر:
- سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 599.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.106.
- كان السكان فى أوروبا العصور الوسطى عندما يصيبهم خطرًا أو يتعرضون لملمة سرعان ما يلجئوا إلى الكنيسة يلتمسون عندها الرحمة، مثلما حدث معهم عند تعرضهم للوباء الأسود.

بحسرة ولا ندم على ذنوبهم ولا يصلى عليهم سوى عوام المصلين[1].

ظهر اهتمام الهانزا ببناء الكنائس والاهتمام بالأراضى المحيطة بها جليًا فى الامتياز الممنوح لتجار الهانزا فى نوفجورود Novgorod، إذ نص على أنه "يجب ألا تمتلىء الأراضى بالمبانى من كنيسة سانت نيكولاس St. Nichnlas إلى أراضى النزلاء طالما أن الشارع ومقبرة سانت بطرس St. Peter، قد تم تشجيرها بشكل تقليدى مثلما كان فى الماضى وبنفس طريقة الألمان Germans، وأهل جوتلاند Gothland.

لابد أن تحافظ كنائس سانت بطرس St. Peter، وسانت نيكولاس فى لادوجا العليا Upper Ladoga على المروج الخضراء بها طبقًا للعادة القديمة[2].

يتضح لنا من هذه الوثيقة السابقة مدى حرص الألمان على الاهتمام بهذه الكنائس المقدسة لديهم، والمحافظة على تشجيرها وفقًا لعادتهم التقليدية التى اتبعوها منذ القدم إلى جانب أن العصبة الهانزية كانت تقوم بجمع الأموال بصورة متكررة لأغراض دينية، مثل بناء كنيسة سانت مارى، بالإضافة إلى أن ثلثا عائدات الرابطة كانت تنفق لتغطية نفقات التشغيل ونفقات استهلاكات الأخوة الهانزية إلى جانب وضع قدر من المال للجوء إليه عند الحاجة[3].

---

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.106.

– كان أصحاب كل مهنة فى العصور الوسطى مترابطين ومتضامنين، فيما بينهم وكانوا فى الغالب يشكلون فيما بينهم زمالة وأخوية والتى كانت على شكل تجمعات ذات هدف دينى، إذ أن هؤلاء الزملاء كانوا يحترمون ويقدرون القديس الشفيع الذى يحمى ويدافع عن المهنة أو النقابة فقد تجمعوا للصلاة والدعاء للمتوفين ولطلب الرحمة ونشر المحبة بين من هم على قيد الحياة، فعلى سبيل المثال كان سانت كوزمو Cosme وسانت دميان Damien لنقابة الأطباء، وسانت كريبينين Crepinien، وسانت هيو لصناعة الأحذية، كما كان هؤلاء الزملاء على استعداد كامل لتقديم المساعدة والمؤازرة فى حالة الوفاة أو المرض، إذ أن هذه الزمالة والأخوية كانت بمثابة مجتمعات للتعاون المتبادل وتجمعات التقوى والمحبة، وقد نشأت بينهم علاقات وروابط متقاربة جدًا ودقيقة، والتى أصبحت نوعا من أنواع المصاهرة والقرابة، ومن هنا جاء تسمية الزملاء عن ذلك. انظر:

- Ganuvard, la France, au Moyen Age, P.263.

(2) Privileges Granted to German Merchants at Novgorod, in: Sartorius, Urkundlrche Geschichte, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

(3) Kiesselbach, Die Wirtschaftlichen Grundlag en Der Deutschen Hanse, P.80.

كانت العديد من هذه الكنائس وغيرها بمثابة مزارات للحجاج، وكان هؤلاء الحجاج من الناحية المهنية معتادين على زيارة هذه الأماكن ويحتل مزار سانت بطرس St. Peter، المكانة الأولى ويليه سانت جيمس St. James، ثم سانت حنا St. John ثم سانت نيكولاس St. Nicholas وسانت كلمنت St. Clement وهؤلاء هم القديسون الشفعاء للتجار وأصحاب السفن والصيادين ومن بين النساء والقديسات تأتى القديسة كاترين St. Catherine وهؤلاء كانوا هم المزارات المختارة فى شمال ألمانيا[1].

كان هؤلاء الزوار يدفعون قدرًا من المال عند زيارة هذه الكنائس، ويظهر ذلك جليا فى الوثيقة الخاصة بالامتيازات الممنوحة للتجار الألمان فى نوفجورود إذ تنص على أنه " إذا رغب زائر قادم من المناطق العليا من البلاد فى التوجه إلى جوتلاند Gothland عليه أن يدفع لكنيسة سانت باتينيزا St. Paetinza ماركًا فضيًا فقط[2]، ولعل هذه الأموال كانت تؤخذ لخدمة

- بلغت النقابات فى القرن الرابع عشر الميلادى أقصى قوتها، إذ امتلأ هذا القرن بعشرات من هذه النقابات القادرة على رعاية مصالح حرفتها ولو أن بعض الحرف أعوزها التنظيم لقلة مالها من أهمية أو لكثرة ما أحاط بها من كراهية محلية، (وليس من شك فى أن الهانزا كانت قادرة كذلك على رعاية مصالح أعضائها مثلما فعلت النقابات)، خاصة أن نقابة التجار كانت تشبه الغرف التجارية والجمعيات المدنية فى العصر الحديث، مع أنه ليس من المحتمل أن تكون هذه المؤسسات الحديثة متفرعة من تنظيمات العصور الوسطى. عن ذلك انظر:
- كرامب وجاكوب، تراث العصور الوسطى، ص ص 625 – 626.

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.107.

- كان التجار فى أوروبا العصور الوسطى يذهبون إلى تلك المزارات ويقيمون الأسواق بجوارها، مثل سوق سانت دنيس St. Denis الذى يعد من أشهر الأسواق التى أقيمت= =بالغرب من المزارات المهمة وأضرحة القديسين، حيث كان يتم فى أوروبا العصور الوسطى تقديس رفات الأنبياء والقديسيين وكل =
= ما ارتبط بهم من أغراض مادية كالملابس والأسلحة وغيرها، مما يعد مصدرًا للبركة والشفاء كما نسبوا إليها أيضا المعجزات. عن ذلك انظر:
- عفاف سيد صبرة، الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية الغربية زمن شارلمان، دار النهضة العربية، القاهرة، 1982م، ص 383؛ الأمين عبد الحميد أبو سعدة، **التوظيف السياسى لرفات القديسين ومتعلقاتهم المقدسة فى أوروبا العصور الوسطى**، كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد الخامس والثلاثون، أغسطس، 2004 م، ص 410.

(2) Sartorius, Urkundliche Geschichte des Ursprunges der Deutschen

الأغراض الدينية داخل الكنائس.

قد كانوا ينسبون العبادة إلى مريم العذراء فجميع كنائس البلدية كانت تقدسها ولم تكن هناك مدينة لا يوجد بها كنيسة للسيدة مريم، وكانت المجالس البلدية تستظل بحمايتها الخاصة وعليه فإن هناك ما يسمى إلى يومنا هذا باسم الباب الجميل للكنسية مارية الواقعة فى مدينة دانزيج Danzig والذى يحمل نقوشًا مكتوبة بحروف ذهبية "ملكة السماء صلى من أجلنا!".

ولا يزال هناك العديد من الكنائس والأبنية ذات الطابع الدينى بجميع أنواعها موجودة إلى يومنا هذا تتسم بالروعة والجمال ولسان حالها أفصح من أكوام الوثائق التاريخية[1].

يتضح لنا مما سبق أن مدن الهانزا اهتمت اهتمامًا كبيرًا ببناء مثل هذه الكنائس الصغيرة والكبيرة داخل مدنها، كما حرصت على إعفائها من أى التزامات مادية من ذلك أنه "تم إعفاء ساحة أهل جوتلاند، والكنيسة ومقبرة سانت أولاف St. Olaf، والمروج الخضراء المجاورة من أى التزامات مثلما كان متبعًا من قبل والطريق من ساحة أهل جوتلاند حتى ساحة الملك بما فيها من السوق يتم إعفاؤها وعدم شغلها بالمباني لتطبيق الحرية"[2]، كانت هذه الكنائس إيذانًا بتطور فن البناء، فقد تشابهت هذه الأبنية مع بعضها البعض فى الشكل الخارجي، ففى كل منها نجد نفس الأبراج العالية التى تطاول السماء، ونجد نفس الشموع والشرفات والحصون المنيعة كما نجد نفس الأدوار العالية ذات الشكل الجملونى، ونرى أيضًا منازل بها نوافذ صغيرة ونجد نفس الجموح نحو استخدام الطوب كمادة من المواد المستخدمة فى عملية البناء واستخدام الألوان المتنوعة للزينة، وقد شوهدت مثل هذه الأبنية فى لوبيك وروستوك والتى تميز بناؤها بقوته الشديدة حتى أن القوى

Hanse, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.107.

– خاصة أنه منذ انتعاش المدن وازدياد نشاطها الاقتصادى فى القرن الثانى عشر الميلادى، وظهور النقابات التى عملت على تحسين مستوى الحرف والصناعات، أدى ذلك إلى جعل هذه المدن مسرحًا لنشاط كبير تمخض عن بناء كتدرائيات تجمع بين الجدة والعظمة والروعة. عن ذلك انظر:=

= – سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج2، ص 263.

(2) Sartorius, Urkundliche Geschichte des Ursprunges Der Deutschen Hanse, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

الميكانيكية الحديثة الآن يصعب عليها تدميرها[1]، ومثل هذه الأبنية التى أقامها تجار الهانزا فى لوبيك وغيرها من مدن العصبة الهانزية خير دليل على مشاركتهم الفاعلة فى الدور الديني والحضاري داخل أوروبا والنهوض بمستوى الحضارة هناك كذلك.

خاصة أن الفنون فى أوروبا بالعصور الوسطى قد ارتبطت بالدين، فجاءت هذه الفنون مرآة صادقة انعكست فيها الحماسة للدين وتعاليم الكنيسة لذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا أن كل ما اشتمل عليه الفن الأوروبي فى العصور الوسطى من رمزية وجمال ومثالية، إنما استهدف غاية واحدة هى إرضاء الشعور الدينى، وهكذا جاء هذا الفن آية صادقة عبرت تعبيرًا أمينًا عن أثر العقيدة المسيحية وعصور الإيمان، وهى العصور التى امتازت بسمو الوازع الديني والباعث الروحي على غيرها من قيم الحياة[2].

كان هذا فيما يتعلق بفن العمارة الهندسية خاصة الكنيسة، أما فيما يتعلق بالعلوم والآداب فكانت مثلها مثل الفن لها تأثير قد يزيد أو يقل فى الخدمة الكنسية[3].

فقد قامت العصبة الهانزية بتشجيع العلوم والآداب[4]، من خلال المدارس، وفى أغلب المدن فإن المدارس كانت ملحقة بالأوبروشيات، والتى يتعلم فيها أبناء الطبقات الثرية القراءة والكتابة وبعض العمليات الحسابية والغناء وتعلم النذر اليسير من اللغة اللاتينية، هذه المعاهد تم تأسيسها تحديًا للقساوسة الذين كانوا يحبون أن يظل الناس قابعين فى الظلام وأن يستعبدهم الجهل.

تقريبًا كان جميع التجار والعديد من أصحاب الحرف قادرين على القراءة والكتابة حتى لو كانوا لا يزاولون هذه الفنون بسهولة كبيرة، أما الخطابات التجارية فكانت إما أن تكتب باللاتينية أو الألمانية، وبالنسبة للغة الأخيرة فإنها كانت أكثر انتشارًا فى الأعمال التجارية[5].

قد حرص الألمان على تعليم أبنائهم كما نصت على ذلك الوثيقة من أن "النزلاء يتمكنوا

---

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.107 – 109.
– عما تركته العصبة من مباني تُعد أثرية. انظر:
- Gaimster, A Parallel history: The Archaeology of Hanseatic Urban, PP. 412-419.
- Mehler The Perception and interpretation of Hanseatic, PP. 97-104.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج2، ص 249.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.111.

(4) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 599.

(5) Zimmern, The Hansa Towns, PP.111 – 112.

obeikandl.com

من إرسال أبنائهم بحرية وبدون عائق ليتعلموا اللغة أينما شاءوا"[1].

قد حازت العصبة الهانزية من القوة والمكانة ما مكنها من رعاية مصالحها والنهوض بمستوى الحضارة فى شمال أوروبا عن طريق تعبيد الطرق وتأمينها وشق القنوات والترع[2]، خاصة أن اهتماماتها الأساسية كانت منصبة على تسهيل التجارة والصناعة، ومن هنا جاءت عنايتها بالطرق والأبنية، والجدير بالذكر أنه قد فرضت قوانين فى بعض المدن تجبر كل مواطن له موارد مالية أن يوصى بمبلغ معين منها لإصلاح الطرق السريعة والحفاظ على الموانىء فى حالة جيدة، ولقد قام الكثيرون بتنفيذ هذا الشرط دون الحاجة إلى قانون مكتوب[3].

كان للنقابات جميعها قاعات خاصة يجتمع فيها الأعضاء[4]، والتى كانت تزين بزخارف بديعة[5]، يشهد عليها ما تركته النقابات من تماثيل وسجلات مكتوبة جعلت المؤرخين يقدرون مدى أهميتها كالمبنى الذى قام ببنائه مجلس مدينة فلورنسا Florence، عام 737 هـ/ 1336م، فقد استخدمته نقابات المدينة، وكان يضم جزءً خاصًا بالمصلى، وأخر لخزن الغلال، وقد نافس هذا المبنى فى تصميمه المبانى الأخرى، وذلك على يد كبار النحاتين الفلورنسيين Florentine[6].

وهنا ينبغى أن نذكر كلمة فى هذا المقام عن هذه المؤسسة المهمة – أعنى بها مجلس المدينة – التى تكمل تصورنا للمدن الألمانية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فتكوين المجلس يختلف بالطبع ما بين الحين والآخر – وذلك حسب حجم المدن وثروتها – لكن كان هناك نقاط تشابه رئيسية موجودة، فعدد أعضاء مجلس البلدية يتراوح ما بين اثنا عشر إلى أربعة وعشرين عضوًا[7]، يترأسهم اثنان أو أربعة رؤساء للبلدية وهم لا يتمتعون بامتيازات خاصة اللهم إلا أنهم يشغلون منصب الرئيس فى المجلس، والذى كانوا يشغلونه طيلة حياتهم فلا يعزلوا منه لكنهم يتناوبونه وهناك قيود معينة لاختيار رئيس البلدية وعليه، فعلى مدار فترة طويلة فى لوبيك لم يكن بمقدور أى

(1) Sartorius, Urkundliche Geschichte des Ursprunges Der Deutschen Hanse, Vol. II, A.D. 1229, P.29.

(2) سعيد عاشور، تاريخ أوروبا، ج1، ص 599.

(3) Zimmern, The Hansa Towns, P.124.

(4) Rowling, everyday life, P.65.

(7) محمود عمران، حضارة أوروبا، ص 178.

(6) Kenigsberger, A History of Europe, P.222.

(2) عن عدد أعضاء المجلس التشريعى داخل المحطة التجارية فى بروج ومهامهم انظر:
- Postan, The Cambridge economic history of Europe, Vol. III, P.114.

شخص من الذين يكسبون قوتهم عن طريق الحرف اليدوية شغل هذا المنصب، ومع هذا فإن هذا القانون لم يدم، ومن ثم فإن التجار هم الذين كانوا يشغلون المناصب الرئيسية لأنهم يسافرون وعلى علم بمتطلبات رفقائهم وعليه فإنهم كانوا يعتبرون بأنهم المناسبين لهذا المنصب ويلى التجار صانعوا الجعة والخياطون وكانوا يشاركون فى الرئاسة، وقد يعتبر التكوين العام للمجلس أنه يسير على النمط الارستقراطي لكنه كان يمتاز بالشورى والقرارات التى يتخذها المجلس الثانى والذي يعرف بمجلس العموم.

أدى هذا النظام إلى ازدهار المدن بالتأكيد، فالمجلس الأول يتشاور والمجلس الثانى يتولى التنفيذ أما فيما يتعلق برئيس المجلس فكان لا دخل له فى ذلك، لكن منصبه يفرض عليه عملا شاقًا لأنه منصب شرفى لكن الراتب كان ضئيلاً[1].

لقد كان هؤلاء الرجال يعملون تحت شعار يبعث على الفخر وهو شعار "النبالة تقتضى Noblesse Oblige"[2].

كان رئيس البلدية يقوم بالإشراف على التجارة ويرى إذا ما كانت الأعمال تتم وفقًا لمبادئ الأمانة، فقد حدث فى مدينة نوفجورود Novgorod أن تم اكتشاف بالة كتان رديئة ومن ثم لا يمكن لرجل أمين صالح أن يشترى مثل هذه السلعة وبالتالى تم إعادتها إلى مدينة ريجا Riga، ثم إلى ويزبى Wisby ومنها إلى لوبيك حيث وجب على رئيس البلدية العثور على من سلم هذه البضائع ومعاقبته عقوبة ثقيلة على ما قام به من غش ومن ثم فإن عددًا قليلاً جدًا من التجار هم من كانوا يحاولون القيام بمثل هذه الاحتيالات كما أنه عثر مصادفة أيضًا على شكاوى خاصة ببراميل أسماك الرنجة تم الغش فى تعبئتها، فقد وضعوا الأسماك الجيدة والكبيرة على البرميل، والصغيرة

(1) Zimmern, The Hansa Towns, P.121.

- شهدت العصور الوسطى صراعًا بين نقابات التجار والنقابات الحرفية، حيث احتدمت الخلافات على المصالح المادية والاقتصادية بين التجار والصناع إلى أن تطورت النقابات الحرفية وأخذت تنازع التجار من أجل المشاركة فى الحياة السياسية. عن ذلك انظر:
- نعيم فرج، الحضارة الأوروبية، ص ص 131 – 132.
- Painter, History of the Middle ages, P.229.

(2) النبالة تقتضى شعار فرنسى الأصل يشار به إلى ما يفرضه نبل المولد أو سمو المنزلة على أصحابه من التزام جادة الشرف والسلوك المسئول. انظر:
= - منير البعلبكى، المورد، ص 615.
- عن قاعات اجتماعات المدينة وزخارفها. انظر:
- Zimmern, The Hansa Towns, PP.121-123.

والأقل جودة بل والعفنة ملأوا بها أسفله، وحيث أن مثل هذه السلع قابلة للتلف ولا يمكن ردها، فقد قام رؤساء البلدية بتعيين معبئين للرنجة يكونوا مسئولين عن أمانة التعبئة[1]. هكذا كان رؤساء البلدية داخل مدن الهانزا يقومون برقابة صارمة على السلع التجارية لمنع حدوث الغش والاحتيال ومعاقبة من يقوم بذلك بشدة حتى لا يتكرر ذلك مرة أخرى.

يتضح لنا مما سبق أن تجار مدن العصبة الهانزية شاركوا مشاركة فاعلة فى إبراز هويتهم ومعتقداتهم الدينية، التى كانت المحرك الرئيسى لكل أعمالهم، كما كان لهم إسهامات ودور اجتماعى وحضارى واضح جدًا فى هذه الفترة منها ما قامت به من تعبيد للطرق وتأمين لها وشق للترع والقنوات وما قامت به من تشييد للكنائس العديدة الفخمة وتشجيع العلوم والآداب، وكذلك مبانى البلدية التى قاموا بزخرفتها وتجميلها ودور رؤساء المدن فى دعم التجارة ومعاقبة الخارجين على القانون بشدة وما سنوه من قوانين تنظم الحياة المدنية، على أن هذا لم يمنع من وقوع خرق للقوانين واضطرابات داخل المدن، كما انصبت اهتماماتهم الأساسية على تسهيل التجارة والصناعة والعناية بالطرق والأبنية.

(1) Zimmern, The Hansa Towns, PP.124-125.

- عن بعض شكاوي مدن الهانزا من اختلاف معايير تعبئة براميل الرنجة في بعض الأماكن. انظر:
- Asfchenfeldt (ed.), urkundenbuch der stadt Lübeck, Zweiter theil, P.603.

obeikandl.com

obeikandl.com